جامعة عبد الرحمان ميرة. بجاية السنة الثالثة ليســـانس
قسم اللغة والأدب العـــــــربي التخصص: دراسات أدبية

محاضرات في مقياس قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر

د. موسى عالم

المحاضرة الأولى: الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد:

أحدثت موجات الاستعمار الغربي الحديث التي اجتاحت العالم العربي منذ بدايات القرن التاسع عشر تحولا جذريا في مسارات الوعي الوطني لدى الإنسان العربي عامّة، والجزائري بشكل خاصّ، فإذا كان الوجود العثماني قد حظي من قبلُ، بنوع من القَبول بين العرب، إمّا بحكم اشتراكهم مع الأتراك في الدين، أو بذريعة الحماية التي كان العثمانيون يوفرونها لأوطانهم، فإنّ الغزاة الغربيين قد قوبلوا بالرفض والثورة منذ وطئت أقدامهم أرض الشرق، ومافتئت مشاعر العداء التي حفرتها الحملات الصليبية عبر التاريخ أن أزبدت في مواقف الأدباء والمثقفين قبل غيرهم من عامة الشعوب، فانبرى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لمواجهة المستعمر فكريا في الشرق، بينما جمعَ الأمير عبد القادر وغيره من طلائع الثورة في المغرب العربيّ بين سلاح السيف وسلاح القلم، فشقّوا للمقاومة نهجا وأشعلوا للثورة جذوة، استمرّ لهيبها مُتّقدا في أشعار محمّد العيد آل خليفة ومفدي زكريا وغيرهما من شعراء الجزائر، وامتدّ وهَجها إلى العالم العربيّ فراح شعراء العرب يتغنون بثورة الجزائر شرقا وغربا، كل بطريقته، تقديسا وإكبارا أو حبا وإعجابا.

أولا: جدلية الثورة والشعر:

يعدُّ الشعر بطبيعته فنّا تثويريا لا يهادنُ، فهو يتوق إلى تغيير الواقع، أو خلق عالم جديد، سواء أكان هذا الخلق وجدانيا أم معرفيا أم خياليا أم جماليا. فالقصيدة تحمل في كلّ أحوالها رؤيا وموقفا من الحياة، تسعى إلى فرضه والإقناع به، ومن ثَمّ توجيه ذوق المتلقي و فكره ورؤيته بُغية التأسيس لوعي جديد.

لقد كان الشعر منذ الأزل مرافقا للثورات والحروب والنزاعات، لما له من قدرة على الدعاية والتأثير، ففي العصر الجاهلي كان الشعر أكبر وسيلة للدعاية وشحذ الهمم ورصّ صفوف القبيلة، واستمر في أداء هذا الدور كاملا في العصر الإسلامي، من خلال الترويج للدعوة المحمدية والذّود عنها، ثم انخرط الشعر في كل الصراعات السياسية التي تخللت فترات الحكم الإسلامي. أمّا في العصر الحديث فكان للشعر دور الريادة في تحرير عقل الإنسان العربي وروحه من براثن الجهل والتخلف والخضوع التي أطبقت عليه طيلة عصور الانحطاط، "فعكف الشعراء على إحياء الفكر العربي والتراث الإسلامي، تحقيقا ونشرا، لإعادة الثقة بالنفس وإحياء الأدب"[1]، وكانت بوادر تلك الثقة واضحة في بواكير الشعر الحديث، حيث واجه الشاعر المستعمرَ المستبدّ بفضح أكاذيبه، ورفض ظلمه، تحدوه في ذلك ثقته في حتمية انتصار الحق على الباطل، كما تعلَّمَها

من عقيدته الدينية. ومن أمثلة ذلك قصيدة البارودي التي خاطب بها الخديوي توفيق حين تمّ سجنه ومحاكمته مُحاكمة غير عادلة قبل نفيه إلى سرنديب، فقال[2]:

يا أيها الظالـــــــم في مُلكه أَغَرّك المُلك الذي يَنفد؟ !

اصنَع بنا ما شئت من قَسوة فالله عدل والتلاقي غَـدُ

فهذان البيتان يعدّان من بواكير الشعر الثوريّ الحديث الذي فتح باب المواجهة بين الشاعر والاستعمار.

لقد تَصدَّرَ الشعراء الصفوف الأولى للثورات العربية، فراحوا يبشرون بها ويقرعون طبولها بإيقاعات أشبه بليل السلاح، كقول مفدي زكريا:

ولعلع صوت الرّصاص يدوّي فعاف اليراع خرافات حبر

أو يتغنون بها إعجابا وتعظيما، كقول سليمان العيسى في ثورة الجزائر[3]:

ألف عذر يا ساحة المجد يا أرْ ضي التي لم أضمّها، ياجزائر

بيديك المصير فاقتلعي الليل وصوغيه دافق النور باهِـــر

وليس غريبا أن يكون الشعراء أول من يدفع ثمن مواقفهم الثورية ورفضهم الرضوخ للأمر الواقع، فالشاعر يسعى بطبعه إلى تثوير الواقع وارتياد آفاق الحلم والمُثُل السامية، ويتوقُ إلى التغيير، وإن كان يعلم أنّ مصيرَه النّفي كالبارودي وأحمد شوقي، أو الإبعاد كمحمود درويش، أو السّجن كمفدي زكريا ومظفر النواب، ولعلّ هذا ما يؤكد حقيقة التزاوج الطبيعيّ بين الشعر والثورة، وعمق العلاقة التي تربط بينهما، فالثورة تمدّ الشاعر بالمادة الخام التي تحرّك وجدانه وتفجّر قريحته، بينما تجد الثورة في الشاعر، بالمقابل، السند والمحفّز الذي يُذْكي شرارتها في النفوس، ويمدّها بعناصر القوّة الروحية التي تحتاج إليها لضمان استمرارها، بل إنّ الشعر هو نوع من الثورة التي تتأجّج في نفوس المبدعين وفكرهم وعقولهم، قبل أن تخرج تلك الثورة الروحية إلى الواقع في شكلها الملموس، وكم من ثورة كانت في أَصلها فكرة، فكلمة تتخلل سطور الشعراء والمبدعين قبل أن تنفجر في وجه الظلم. لكن بعض الشعراء يلزمون الصمت أثناء الثورة، ليس خوفا منهم ولا تخاذلا، وإنّما ليفسحوا المجال للفعل بدل القول، أو لأن الثورة تتجاوز بعظمتها كلماتهم، فمن الصنف الأول نذكر الشاعر محمّد العيد آل خليفة الذي رفع لواء الدعوة إلى الثورة قبل انطلاق حرب التحرير الجزائرية بأزيد من عقدين منذ الثلاثينات، لكنه لزم الصمت لما اندلعت ولم ينتج أيام الثورة سوى قصيدتين نظمهما أيام إقامته الإجبارية، هما قصيدته (مناجاة بين أسير وأبي بشير)، وأبو بشير طائر يستبشر الناس رؤيته،حيث قال:

جَزَمتُ بقرب إطلاق الأسير غداة سمعت صوت (أبي شير)

وقصيدة (أبا المنقوش) حيث ناجى بشعره جبل (بومنقوش) الواقع قرب بسكرة، فقال[4]:

أبا المنقوش هل تدري بحالي فأنت اليوم جاري في الجبال

إلى أن يقول:

ترقّب خير مولود جديد بمولده تمخّضت الليالي

فإنّ الثورة اكتشفت مداها ولاح لها التحرُّر كالهلال

وقُل لابن الجزائر كُن صَمودًا فنصرُ الله للبأساء تالي

أمّا الشاعر السوري سُليمان العيسى، فلم يُخفِ عجز الكلمات عن حمل ذلك الزخم الهائل الذي جاءت به الثورة الجزائرية، فأصابت به البلغاء وأرباب الشعر بالذهول، فقال:

روعة الجرح فوق ما يحمل اللفـ ظ ويقـوى عليه إعصـار شاعـر

ما عساني أقول والنـار لم تلـ فح جبيني هـنـاك والثـأر دائر

وقد عبّر مفدي زكريا عن عجز الكلمات عن مسايرة قوة الثورة، فقال:

نطق الرصاص فما يبـاح كـلام وجرى القصاص فما يتاح مـلام

السيف أصدق لهجة من أحـرف كتبت، فكان بيانها الإبهـام

إن الصحائف للصفائح أمـرها والحبر حرب والكلام كـلام

والأبيات مستلهمة من بائية أبي تمام، وهي قصيدة حماسية نظمها بمناسبة انتصار لخليفة المعتصم على جيش الروم في معركة عَمّورية، ومطلعها:

السَيفُ أَصدَقُ أَنبـاءً مِنَ الكُتُبِ في حَدِّهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ وَاللَعِبِ

بيضُ الصَفائِحِ لا سودُ الصَحائِفِ في مُتونِهِنَّ جَـلاءُ الشَكِّ وَالرِيَبِ

أما أبو القاسم خمار فبرر صمت الشعر آناء الثور حتى يفسح المجال للزحف الصامت في المعارك، فقال:

أنا لا أغرد للنضال ولا أغني للرجـولة

مَلَّت مسامعنا وعا فَ الشعرُ ترديد البطولة

لمن الهتاف؟ وأمتي لم تزل بين الحـمم

الصمت أبلغ في الوغى والنصر للزحف الأصمّ

الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث:

حمل الشعر العربي الثورة الجزائرية في ثنايا القصائد ورافقها منذ كانت قبسا يومض في ظلمات القهر والاستبداد، حيث امتدّ صداها إلى كل الأقطار العربية، من المغرب إلى الخليج العربي، وهذا ما أكده سفير الجزائر السابق بالعراق وسوريا (عثمن سعدي) حيث ذكر بأنه "جمع 254 قصيدة في الثوة الجزائرية، قالها

107 شعراء من العراق فقط، و198 قصيدة قالها 62 شاعرا من سوريا"[5]، وتلك القصائد تضمّنها كتابه (الثورة الجزائرية في الشعر العراقي).

لقد هزت الثورة الجزائرية وجدان الشاعر العربي منذ اندلاعها في نوفمبر 1954، فلم يخف احتفاءه بجلالها وامتنانه فب فضلها على الأمة قاطبة، فهي الثورة التي اخترقت جدران الخوف وحولت الأمل الأكبر في التحرر والانعتاق إلى حقيقة تؤخذ بالقوة والإصرار، وليس غريبا أن يتردد صدى هذه الثورة في في قوافي الشعر العربي كله، من المشرق إلى المغرب، فكان لها سندا وداعمًا أعلى صوتها في عديد المحافل العربية والدولية. وقد عبر عن ذلك شاعر الثورة الجزائرية نفسه حين اعترف بمؤازرة بلاد العرب قاطبة كفاح الشعب الجزائري فقال:

نسب بدنيا العُرب ... زكى غرسه أَلمُ .. فأورق دوحـــه وتفرعا

سببٌ، بأوتار القلوب عروقُه إن رنّ هذا.. رن ذاك ورجّعـــا

إمّا تنهد بالجزائر موجـــــع آسى «الشامُ» جراحه، وتوجعا

واهتز في أرض الكنانة خافق وأقضَّ في أرض (العراق) المضجَعا

وارتجّ في الخضراء شعب ماجد لم تثنـــه أرزاؤه أن يفـــــــزعا

تلك العروبة .. إن تثر أعصابها وَهن الزمان حيالها وتضعضعـــا اللهب المقدس 55

أسباب اهتمام الشعراء العرب بثورة الجزائر:

- تنامي الحس القومي وبروز زعماء قوميين في شتى الأقطار العربية.
- قوة الثورة وجنوحُها إلى مقارعة الجيش المحتل دون تنازل ولا مساومة، رغم القوة العاتية التي أقحمتها فرنسا في هذه الحرب.
- تماسك الثورة وإصرارها وتنظيمها المحكم الذي جعلها مَثلا لكل الشعوب المُستَعمَرة في العالم. فقد غَدَت ثورة الجزائر النموذج الوحيد الذي أثبت قدرته على تحرير الشعوب من ربقة الاستعمار.

موضوعات الثورة عند الشعراء العرب:

1- **وصف المعارك**: قال أحمد عبد المعطي حجازي في قصيدة (الموت في وهران)[6]:

من أبدل المعنى، فصار المُنى

أن يلتقي صريعُهم بالصّريع؟

ومن أضاء للعيون الرّدى

وأطلع الفجر قبل الهزيع؟

يرونه ودونه مَقتَل

يرونه ولا يرون الرجوع

أريد أن أعثر فيهم على

مستدبر النار فلا أستطيع

أكاد أن أهتف في جمعهم

عودوا! وأخشى أحدا أن يطيع[7]

فالقصيدة تعكس تفاعلا وجدانيا عميقا مع الثورة وانبهارا بالقوة الروحية الجبارة التي كانت تدفعها بثبات نحو النصر، وذلك ما تعكسه الصور البيانية التي تلامس البعد الروحي للثورة الجزائرية، ففي قوله (ومن أضاء للعيون الرّدى) استعارة مكنية شبه فيه الردى بشيء مادّيّ يُضاء فتكتشف العيون جماله، وما ذك الجمال المقصود في العبارة سوى جمال الشهادة التي يتوق إليها المجاهد المسلم ويستبشر بما بما أعدّه الله لمن يقتل في سبيل الله.

وبنفس الإعجاب خاطب أحمد عبد المعطي حجازي ثورة الجزائر فقال:

ياينبوعا يغسل عار الماضي

يا نور العرب على طول البحر الأبيض، يا أخي، يا فخري

يا ملهمتي، يا أوراس[8]

2- **رثاء الأبطال:** قال الشاعر العراقي كاظم جواد في رثاء البطل عميروش:[9]

مات وفي عينيه شيء من لهيب المعركة

مات ووهران سماء مازالت محلولكة

الخوف والطاعون والحصار والمآتم

والليل والفئران والحديد والشراذم

مات على السفح وحيدا، يحض البريق

في مقلتيه، يسكب الحريق

من شفتيه، مات في الطريق يحلم بالجبل.

لقد مجّدت القصيدة العربية البطل الجزائري وألبستهثوب القداسة والرفعة، جاعلة منهالمثل الأسمى لكل ثائر عربيّ.

3- كشف ممارسات المستعمر الدنيئة:

سعى الشعراء إلى فضح أساليب المستعمر الدنيئة، وإدانة سلوكاته التي تنم عن عمى بصيرته، ومن أمثلة ذلك القصيدة التي ألقاها الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري قصيدة في جماهير حاشدة بدمشق سنة 1956 منددّا باختطاف الفرنسيين طائرة الزعماء الجزائريين الخمسة، وقال فيها:

خمسةٌ إن بطونا حملت ثِقلهم ما عُقمت أن تضعا

خمسة غصّت فرنسا بهم نعم عُقْبى خِسّةٍ مُرتجعا

جهِل الصنعة نِكْس أبلهٌ سرق الباب وعاف المصنعا

ويعدّ مثل هذه الأبيات تأريخا وتوثيق فنيًّا لمآسي الثورةومعاناة أبنائها أمام وحشية الغاصبين الذين لم يرحموا امرأة ولا صبيا، وهنا تتشكل الصورة المتناقضة التي يجتمع فيه الجلاد وجها لوجه مع البطل الثائر في صورة شعرية تعكس حقيقة البون الشاسع بينهما.

وللجواهري قصيدة أخرى عنوانها (الجزائر) تقع في 98 بيتا. تعتبر من عيون الشعر العربي الحديث.

الشاعر السوداني الكبير الهادي آدم الذي عنت له أم كلثوم قصيدة (أغداً ألقاك) (حضرمؤلف هذا الكتاب حفلة غنائها بالقاهرة وكان الشاعر حاضرا)، له خمس قصائد في ثورتنا.

يصف الشاعر جميلة فيقول: إن جميلة سارت في مسيرة الضياء محطمة الإغفاء الطويل الذي نزل على العرب، فبفضلك وأنت الحرة النبيلة أطلَّ الفجر على الربوع العربية وعمها ضياء النهار:

وهكذا تمضين يا جميلهْ

لعالَمِ الضياءِ في إغفاءَةٍ طويلةْ

لو لم تكوني حرةً نبيلهْ

لما نمتْكِ أرضُنا الرمليةُ القِفارْ

لما أطلَّ الفجر في بلادنا

وانبثقتْ أشعةُ النهارْ

4- **وصف المكان:** أبدع الشاعر العربي في وصف المكان المرتبط بالثورة، وأضفى عليه في الغالب طابع القداسة المستمدّة من التضحيات والدماء السي سقت حناياه، قال أحمد عبد المعطي حجازي في قصيدة (أوراس):[10]

مدن المغرب

ترتج على قمم الأوراس

زلزال في مدن المغرب

لم يهدأ منذ سنين مائه

لم يترك في جفن أملا في نعاس

يأتي المولود على صوت الزلزال

ويموت رجال

فيودعهم صوت الزلزال

وحيثما دوّى صوت الرصاص وسالت دماء الشهداء تحوّلت الأرض إلى مَزار مقدّس تهفو إليه قلوب الشعراء، قال الشاعر العراقي سعدي يوسف في قصيدة (الطريق إلى قسنطينة):

أنا لست أملك بندقية

لكنهم لو يسمحون هنا لأسرعنا إليك

ولبعت أوراقي ومكتبتي وجئت ببندقيه

ولكنت جنديا في المدينه

من أجل أطفال المدينة

ولنسمة من برشلونه

ولوجهك العربي، يا ضوء الشمال

أما بدر شاكر السياب فاستلهم عظمة وهران وصمودها في وجه المحتلّ فقال[11]:

هذا مخاض الأرض لا تيأسي

بشراك يا أجداث حان النشور

! بشراك في (وهران) أصداء صور

سيزيف ألقى عنه عبء الدهور واستقبل الشمس على (الأطلس)

5- الإشادة بأبطال الثورة وبطلاتها:

شغلت بطولات المرأة الجزائرية اهتمام الشعراء العرب، فنظموا فيها شعرا كثرا أملا في استجلاء رمزيتها وعظمة روحها، واستماتتها في الدفاع عن وطنها. وقد كانت البطلة جميلة بوحيرد أكثر المجاهدات إلهاما للشعراء العرب. قال سليمان العيسى:

أين مني جميلة؟ تزار الســـا حات من صمتها بألف جِـداء

أي ســـــرّ في الصمت يرسله الأبطال نارا، وصاعقات فداء!

عظمت صيحة الفداء، وعزت أن توارى في دامس الظلمـــاء

هي فينا سحر القصيد إذا غنى، ووهج النارِيـــــــــة البتراء

هي في غضبة الملايين تهـــوى فوق جلادها سيـــاط ازدراء.

قالت نازك الملائكة عن جميلة بوحيرد:

هم حمّلوها جراح السكاكين في سوء نية

ونحن نحمّلها –في ابتسام وحسن نية –

جراح المعاني الغلاظ الجهولة

فيا لجراح تعمق فيها نيوب فرنسا

وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى

فوا خجلتا من جراح جميلة! !

وتغنى نزار قباني بجميلة بوحيرد وبكل ما تحمله من رمزية حضارية فقال:

الإسم: جميلةُ بوحَيرَدْ

رقمُ الزنزانةِ: تِسعُونا

في السجن الحربيَّ بوَهران

والعمرُ اثنانِ وعشرُونا

عينانِ كقنديلي معبَدْ

والشعرُ العربيُّ الأسوَدْ

كالصيفِ..

كشلاَّلِ الأحزان

إبريقٌ للماءِ .. وسجَّان

ويدٌ تنضمُّ على القُرآن

وامرأةٌ في ضوء الصبحِ

تسترجع في مثل البوحِ

آياتٍ مُحزنة الإرنان

من سُورةِ (مَريمَ) و(الفتَحِ)

أما الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي فنظم قصيدة في شهيد الثورة الجزائرية العربي بن مهيدي حيث أثنى على جَلَده ومقاومته الجنود الفرنسيين فلم يَبُح لهم بسر رغم ما أذاقوه من أبشع صور التعذيب، فقال:

كان سرا مغلقا لا يتكلم

كان يعلم:

أنه لا بد هالكْ

وستبقى بعده الشمس هنالكْ

في ليالي بعثها، شمسُ الجزائرْ

تلد الثائرَ في أعقاب ثائرْ

وَحَدا الشاعر السوري سليمان العيسى حَدوَ البياتي، فأنشد قصيدة رائعة في البطل زيغود يوسف، فقال:

الثائر المقْدودُ من نارِ

أغفى على الغار

كخُمود إعصارِ

كصباح نُوّارِ

ضُربت عليه ألف زوبعة

وسحابةٌ سوداء كالقار

الصامدُ المقدودُ من لهبٍ

الفارس العربيُّ

عرفته أرضُ المجد حَدَّادَا

في ركن حانوتِ

يحيا على الخَشِنيْنِ من ثوب ومن قوتِ

وسرى نداءُ الثأر رعّادَا

وأهابت الثورهْ

وتكلمت آلامنا غورًا وأَنجادَا

فإذا الكَمي .. فِراشه صخرهْ

وإذا هو الثورهْ[12]

قوة الشعر من قوة الثورة:

يتغنى جلال الحنفي بأمجاد سنوات الثورة السبع التي تساوي بقيمتها الزمان والناس كلهم، كما أنّها تساوي الدهر جميعه والتأريخ وأجيال البشرية، فالأبطال هم الجزائريون فحسب، ولا أبطال في الأمة غيرهم؛ لأنّهم رجال أفعال لا رجال أقوال، يقول: [فقرة معدّلة]

سَبعٌ يعادلن الزَّمَانَ وأهْلَهُ والدَّهَر والتأريخَ والأجيَالا

يا قومُ مَا الأبْطَال إلاّ أنتُمُ لَو أنَّ شَعبَاً كافَ الأبطَالا

إنَّ السيوفُ إذا شهرن فإنَّمَا يَجعَلْنَ أقوالَ الرِّجالِ فِعَالا [88]

وعبد الوهاب البياتي الشاعر المجدد، يصور قوة الثورة بأنّها عملاقة، وبأنّها فكرة مبدعة تكتسح العملاء الذين يسميهم بالمسوخ والطبول والجيف، فالثورة تفلح الحقول من خلال أهوال العواصف، وتصنع فوق الأنقاض كل ماهو جميل ونبيل، فالثورة إذا عند البياتي فكرة تبني وتفلح؛ لأنّه يستقرئ الأحداث ويستطلع المستقبل، مستقبل الجزائر سيكون بناءاً جميلاً وسبكاً رائعاً لكل ماهدم، يقول:

الثَّورةُ العِملاقه

الفِكرةُ الخلاقه

تَجرِفُ في طريقها المُسَوخَ والطُّبَولَ

والجيفِ المُعَطّرة

والنصبَ الشَّائعةِ المُبَعْثَره

تُحْدثُ في إعْصَارِها الحُقُولَ

تعيدُ صنعَ الرائع النبيلِ[89].

وفبدر شاكر السياب يعبر عن هذا المعنى في قصيدته "إلى جميلة" حيث يخاطب الثورة الجزائرية من خلال المناضلة الجزائرية، فيقول لها لولاك ما جادت أغصاننا القاحلة بالثمار، ولَمَا تدفقت قوافينا البديعة، فنحن (أي: العراقيون والعرب) نعيش في هوة مظلمة، وعن طريقك تسرب لنا الإشعاع الذي يبدد ظلامها، فقال:

والله لَولا أنّها يَا فَادِيَة

ما أثْمَرت أغْصَانُنُا العَارِيَة

أو زَنْبَقتْ أشْعَارُنا القَافِية

إنَّا هنا.... في هوة راجية

ما طَافَ لَولا مُقْلَتاك الشعاعُ[97]

بل إنّ الشاعر العربي قد أدرك أنّ قوّة الثورة الجزائرية لم تكن مادية يمكن مغالبتها، بل كانت قوة روحية عاتية يستحيل على العدو الوصول إليها، فهي فكرة خلاقة تسكن نفوس الجزائريين وعقولهم، لذا فلا يمكن قتلها بمجرّدسجن المناضلين أو قتلهم، إنّها فكرة خالدة يحدوها الإيمان العميق بعدالة القضية وحتمية النصر. وهذا ما تنبئ به قصيدة "أنا فكرة" للدكتور جواد البدري، التي نظمها وأهداها لجميلة عام 1958، وهي من أجمل ما قيل في نضال جميلة بوحيرد، يقول: [فقرة معدلة]

اقْتلُونُي

أنا فكرَه

في العُقولِ النيّرِه

في النُّفُوس الخَيّرِه

في دُموعِ الكَادحِين

في قلوبِ الطّيبين

عَبْرَ الآفَ السِّنينِ

مُسْتَقرِة

أنا فِكَره

لقد تحوّلت الثورة الجزائرية إلى رمز شعري يضاهي رموز الأساطير، فقد كتبت للأمة تاريخا غير متوقع وأنارت لها طريق الخلاص، فحولت الآمال البعيدة إلى رجاء وحقيقة، وأمدّت الشاعر بذلك الأمل المفقود والرمز الشعريّ المنشود، وراحت تضيء أعماق خياله وتزرع الحياة في روحه الشعرية التي تآكلتها آلام الاضطهاد وسكنتها الأحزان الرومانسية المتشائمة واليأس الدّفين، قبل أن تشرق عليها بارقة الأمل التي أضاءت لعديد الشعوب المستعمرة طريق الخلاص.

محاضرات في مقياس قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر د. موسى عالم

المحاضرة الثانية: القضية الفلسطينية في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد:

شكلت القضية الفلسطينية محور اهتمام الأدباء العرب خلال العصرين الحديث والمعاصر، بحكم ارتباطها بمعتقدات الأمة وبمصيرها كلّه، وبحكم العلاقة الروحية المتينة التي تربط قلوب المسلمين بها، فالقدس أولى القبلتين ومنزل العديد من الرسالات السماوية، ما أكسبها مكانة دينية كبيرة، فضلا عن قيمتها الاستراتيجية والقومية والإنسانسة المميّزة، فهي واحد من أهمّ رموز الهوية العربية الإسلامية، تحتلّ موقعا حساسا يتوسّط عدة دول محورية، فضلا عن كونها واحدة من أقدم المآسي الإنسانية وأشدّها تعقيدا، حيث بدأت مند العقد الثاني من القرن التاسع عشر في شكل هجرة واستيطان منظمين لليهود ، مقابل تشريد الفلسطينيين وتهجيرهم برعاية بريطانية، انتهى الأمر بإعلان إنشاء وطن رسمي لليهود بموجب وعد بلفور، سنة 1917.

لازمت القضية الفلسطينية وجدان الشعراء العرب منذ أيام الصراع الأولى، فالتزموا بمناصرتها وتبنّيها، فما إن اندلعت الثورة الفلسطينية الكبرى في عام 1936، حتى استقال الشاعر عبد الرحيم محمود[13] من وظيفته كمعلّم للغة العربية، لينضّم إلى صفوف كتيبة المناضل عز الدين القسام مقاتلا ضد القوات البريطانية والصهيونيّة، واستمرّ إبداعُه الشعري إبّان الحرب، فأنتج واحدة من أشهر قصائده، هي قصيدة (الشهيد) التي صوّر فيها الشهيد كما يتمنّاه ويراه، مليئا بعزّة النفس والإقدام[14]:

سأحمل روحي على راحـــتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياةٌ تَسُرُّ الصديـــق وإما ممات يغيظ العِـدا
ونفس الشريف لها غايتـــان ورود المنايا ونيلُ المـــنى
لعمرُك إنّي أرى مَصرعـــي ولكن أَغُذُّ إليه الخُـــطى
أرى مصرعي دون حقي السليب ودون بلادي هو المُبتـغى
يَلَذُّ لأذني سماع الصليـــل يُهيجُ نَفْسِي مَسِيلُ الدِّما
وجسمٌ تَجَدَّلَ في الصحصحان تَنَاوَشُه جَارِحات الفَـلا
فمنه نصيبٌ لِأُسْدِ السَّمـــاء ومنه نصيب لأسـد الثَّرَى
كسا دَمُه الأرضَ بالأُرجُـــوان وأثقل بالعطر رِيحَ الصَّبا
وعَفَّر منه بَهِيَّ الجَبيـــن ولكن عُفارًا يزيد البَهـــا
وبَانَ على شَفَتَيه ابْتسـام مَعانِيْهِ هُزْءٌ بِهذِي الدُّنـا

ونام لِيَحْلُمَ حُلْمَ الخلُـودِ ويَهْنَأَ فيه بِأحْـــلَى الرُّؤى
لَعَمْرُكَ هذا ممات الرجال ومن رَامَ موتاً شريفًا، فَذَا

نقل الشاعر معانيه بلغة حماسية سِمتُها الجلاء والوضوح والهدوء النابع من وعي عميق بقداسة الشهيد ومصيريّة القضيّة، فهو يخاطب وجدان القارئ بما يحرك فيه مشاعر البطولة والإقدام، على طريقة شعر الحماسة العربي القديم، بينما راح خياله ينهل من الموروث الديني الإسلامي معاني الخلود والسعادة الأبدية التي وُعِد بها الشهداء، فأحسن ملامسة مواطن الحساسية المرهفة لدى المتلقي العربي، مستمدًّا حيوية الإيقاع وقوة التأثير من حضوره الفعلي في خضمّ النزال، فهو ينقل جانبا حيا من الواقع النفسيّ الهائج الذي يحيا بداخله.

أما الشاعر المصري أحمد محَرَّم (1877 – 1945)، وهو من رواد مدرسة البعث والإحياء، فكان من أوائل الشعراء الذين تبنوا القضية الفلسطينية وناصروها، لكن بنَفَس أقل اندفاعا مما لمسناه في قصيدة عبد الرحيم محمود، فقد كتب قصيدة عن فلسطين، قال فيها:

فلسطينُ صبراً إنّ للفوز مَوْعِـــدا فَإلاّ تفوزي اليومَ فانتظري غَـــــــدا
ضمَانٌ على الأقدارِ نصرُ مُجاهـدٍ يرى الموتَ أن يحيا ذليلاً مُعَبَّـــــــدا
إذا السّيفُ لم يُسْعِفْهُ أَسْعَفَ نَفْسَهُ بِبأسٍ يراه السّيفُ حتماً مُجـــــــرَّدا
يَلوذُ بِحدَّيْهِ ويمضي إلى الوَغَـــى على جانبيهِ من حياةٍ ومِـــــــن رَدَى
مَنَعْتِ ذِئابَ السُّوءِ عن غِيلِ حُرَّةٍ سَمَتْ في الضّواري الغُلْبِ جِذماً ومَحْتِدا
لها من ذويها الصّالحين عزائـــمٌ تَفُضُّ القُوى فضّاً ولو كُنَّ جُلمُـــــــدا
إذا صدمت صُمَّ الخُطوبِ تَطَايرتْ لدى الصّدمةِ الأُولى شَعاعاً مُبَـــــــدَّدا
لكِ اللهُ من مظلومةٍ تشتكِي الأَذَى وتأبَى عوادِي الدّهرِ أن تبلغَ المَـــــــدَى

رسمت هذه القصيدة صورة جلية لموجة الوعي القومي التحرري التي تخللت حركة الإحياء في الوطن العربي، بتأثير من دعوات رجال الإصلاح التي أعادت الاعتبار لمقومات الهوية العربية الإسلامية في مواجهة المدّ الصليبب الصهيوني، وبفضل الوعي السياسي الذي بدأ في التبلور مبكرا منذ ثورة أحمد عرابي بمصر، وبفضل انتعاش الحركات الإصلاحيية والسياسية في الجزائر وسائر بلاد المغرب العربي، حيث بات الخلاصُ من ربقة الاستعمار قدرا محتوما في نظر فئات واسعة من الشعوب العربية.

أما في الجزائر، فلم تُنسِ مأساةُ الجزائر الشاعرَ محمداً العيد آلَ خليفة مصيبة فلسطين، ولم تشغله عن التفكير فيها، فقد كان له حضور أدبيّ بارز منذ الأيام الأولى لانتفاضة الفلسطينيين.فلما قامت الثورة الفلسطينية عام 1936م، وكادت تقضي على النفوذ الأنجليزي والوجود الصهيوني؛ أعلنت الثورة الإضراب العام في جميع أنحاء فلسطين تعبيرًا عن سخط الشعب الفلسطيني على الانتداب البريطاني والدولة اليهودية المقترحة، وسرعان ما تحول الإضراب إلى ثورة علنية مسلحة، وتوافد المتطوعون من البلاد العربية المجاورة، وثار الرأي العام العربي في مختلف الأقطار العربية، وشعرت السلطات البريطانية بالخطر، فاستخدمت الدبابات والطائرات في قمع الثوار والتنكيل بهم، حينها أحس محمد العيد آل خليفة بالخطر المحدق بهذا البلد

الذي يعدّ قلب الوطن العربي، وأدرك أنَّ بريطانيا وراء كل مؤامرة تعرضت لها، فكتب قصيدته (بني التايمز) التي نشرت سنة 1936، وفيها هاجم فيها الأنجليز، فاضحا خططهم ودسائسهم، وتحسّر على ما حلَّ بأولى القبلتين، فقدّم صورة مشرقة لما بلغه الوعي السياسي الثوري لدى شعراء الجزائر آنذاك، فقال[15]:

"بَني التَّايْمز" قَدْ جُرْتُـمْ كَثيرًا ... فهَلْ لكُمْ عَنِ الْجَوْرِ ازْدجَـــارُ ؟
أَفي أَسْواقِكُمْ نَصبًا وغَصْبًـــا ... تَسومُ (القِبْلَة) الأُولى التّجَـــارُ
إِخَالُ (القِبْلَةَ) انْسَجرتْ دِمَاءً ... كَمَا لِلْبَحْرِ باللُّجج انْسِجـــــارُ
تَرَوْنَ لَهَا سِوَى العَرَبِي أَهْـلاً ... وتَأْبَى التُّرْبُ فِيهَا والْحِجَـــــارُ
فَلَيْسَ لَهَا بِلاَ فَمِهِ لِسَـــانٌ ... وَلَيْسَ لَهَا بِلاَ دَمِهِ نِجـــــارُ
أَلَمْ يُؤْلِمْكُمُ حَرَمٌ مُبـــــاحٌ ... وشَعْبٌ يَسْتجِيرُ ولا يُجـــــارُ
إِذَنْ فالحَرْبُ لِلْعَـــرَبِي دَأْبٌ ... وَهَلْ تَخْفَى (الْبَسُوسُ) أو (الْفِجارُ)
شَدَدْتُمْ قَهْرَهُ فَعَلاَ انْفِجـارًا ... وعُقْبَى شِدَّةِ القَهْرِ انْفِجـــــارُ

لقد أحسّ الشاعر محمد العيد، كغيره من الشعراء العرب والمسلمين، بالخطر المحيط بالقدس وفلسطين كلها، حيث بدأت خيوط المؤامرة تتضح والأطماع الصهيونية تنكشف بمكرها، عندما صوتت الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة سنة 1947 لصالح مشروع بريطاني، يقضي بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود كحل وسط للصراع بينهما، لكن الشاعر أدرك بوعيه السياسي حجم الكارثة التي أحاطت بالقدس وأهلها ظلما وجورا، وراح يؤكد على حق العرب فيها فقال[16]:

يا قِسْمَةَ القُدْسِ أَنْتِ ضِيزَى ... لم يَعْدِلْ القاسِمونَ فِيكِ
مَضَوْا عَلى الحَيْفِ لَمْ يُبالُوا ... بِمَا جَرَى مِنْ دَمٍ سَفيـكِ
القُدْسُ لِلْعُربِ مِنْ زمـــانٍ ... لَمْ يَقْبَلُوا فيهِ مِنْ شريـكِ
قَدْ سامَهُ الأَجْنَبِيُّ خَسْـــفًا ... وهَدَّ مِنْ رُكْنِهِ السَّمِيـــكِ
يا (لُنْدُرا) لَوْدَرى بَنُونَـــــا ... لم يَأْمَنُوا الْغَدْرَ مِنْ بَنيكِ
إخالُ شَعْبَ الْيَهُودِ سِـــرًّا ... سَبَاكِ بِالْعَسْجَدِ السَّبِيكِ
أَهَكَذَا تَفْصِلُ الْقَضايـــا ... بِحُكْمِها لَجْنَةُ الْمَلِيـــكِ ؟
قَدْ دَلَّ طُغْيـــانُ انْكِلتْرَا ... عَلَى فَناءٍ لَها وَشِيـــكِ

اتخذ الخطاب الشعري في هذا المقطع مَنحى عقليا منطقيا، مراعاة لمقام المخاطَب الأجنبي الذي ينبغي مواجهته بالوقائع التاريخية والحقائق الواقعية المَعيشة، من أجل إقناعه بطريقة دبلوماسية راقية. لكنّ ذلك التوجه العقلي لم يمنع الشاعر من البقاء مرتبطا بلغته الدينية التراثية عبر توظيف بعض أشكال التناص، فالقسمة الضّيزى لفظ من غريب لغة القرآن، فيه إيحاء واضح بوجود تشابه ضمنيّ بين كفار اليوم (الإنجليز) وكفار الأمس الذين يفضلون أنفسهم على خالقهم جلّ وعلا، فيجعلون لأنفسم الذّكر الذي يرضونه ولله الأنثى، وفي ذلك توبيخ للإنجليز وتهكم بهم.

يبدو أنّ الشاعر قد اكتسب خبرة في التعامل مع أساليب الاستعمار ودسائسه المتلبّسة بقِيَم العدل والإنسانية، فاضطلع بمهمّة فضحها وتوعية الناس بخطرها. كما يبدو أنّ القضية الفلسطينية قد كشفت

للشعراء العرب، بتعقيداتها وما أحاط بها من دسائس ومؤامرات، أنّ مصير الأمّة لا يمكن فصله عن مصير فلسطين، وأنّ مكائد المستعمر واحدة لاتتغير بتغيّر الزمان والمكان، فلا مناصَ من تقفّي آثاره وفضح تاريخه الدّامي تاريخيا وأدبيا، سواء أكانت في فلسطين أو في غيرها من المستعمرات العربية. وشغلت حيزا واسعا من إنتاج الشعراء العرب في العصر الحديث.

أما الشاعر العراقي المعاصر سعدي يوسف (2021 – 1934) فدعا الفلسطينين إلى تحدي الظلم والإحتلال، مؤكداً على ضرورة التضحية في سبيل الحرية واستقلال الوطن، إلى جانب دعوته للنضال والكفاح والمقاومة والتحدي حتى تحرير الوطن الفلسطيني من براثن الاحتلال، نراه يلقي اللوم على أولئك الذين اختاروا الصمت أمام صور القتل والدمار والمجازر . ومن شعره الفلسطيني قصيدته" فلسطين إلى الأبد"، التي يقول فيها :

هذا الفضاءُ نظلُّ نطْرقُهُ
حتى نرى في الوحشةِ العَلَما
حتى يدورَ الطيرُ نُطْلِقُهُ
نحو النجومِ لِيُطْلِقَ القَسَما
في البراري فلسطينُ، في قُبّراتِ المخابئ
في الرصاصِ الكثيفِ
في حديدٍ يَفُلُّ الحديدْ
في يدٍ
في زِنادْ
في اقترابِ البلادْ

لم تفتُر جُذوَة الالتزام بالقضية الفلسطينية بين الشعراء العرب المعاصرين، بل إنّ استقلال جميع البلدان العربية قد أفرد القضية الفلسطينية بمزيد من الاهتمام، وصارت وحدها الغصّة التي تملأ حلق الشاعر، والجرح الذي ما انفك ينزف بين يدي القصيدة، ما زاد من عمق تفكير الشاعر في القضية عمقًا وجَلاءً. قال نزار قباني في قصيدة (منشورَاتٌ فِدَائيّة على جُدْرَانِ إسْرائيل):

-1-	وفي الوصايا العشْرْ...
لَنْ تجعلوا من شعبِنا	-2-
شعبَ هُنودٍ حُمرْ	لا تسكرُوا بالنصرْ
فنحنُ باقونَ هُنا..	إذا قتلتُمْ خالداً
في هذه الأرض التي تلبس في مِعْصَمها	فسوف يأتي عَمْرو
إسوارةً من زهر	وإن سحقتُمْ وردةً
فهذه بلادُنا	فسوفَ يبقى العطرْ
فيها وُجِدنَا منذ فجر العمرْ	-3-

فيها لعِبنْا.. وعشِقْنا.. وكتبنَا الشِعرْ	لأنَّ موسى قُطعتْ يداهْ
مُشَرّشُونَ نحنُ في خُلجانها	ولم يعُدْ يُتقنُ فنَّ السِحرْ
مثلَ حشيش البحرْ	لأنَّ موسى كُسِرتْ عصاهْ
مُشَرّشُونَ نحنُ في تاريخها	ولم يعُدْ بوسعه..
في خُبزها المرقُوقِ.. في زيتونِها	شَقَّ مياه البحرْ..
في قمحها المُصْفَرْ	لأنَّكم .. لستُمْ كأمْريكا
مشَرّشُونَ نحنُ في وجدانِها	ولسنا كالهنود الحُمرْ
باقونَ في آذارها	فسوفَ تهلكونَ عن آخركم..
باقونَ في نيَسْاَنِها	فوقَ صحاري مِصرْ..
باقونَ كالحَفْر على صُلبانِها	

يلاحظ القارئ بوضوح تطور أساليب الشاعر المعاصر في تناول القضية الفلسطينية، فقد منحها أبعادا إنسانية ووجودية أعمق، فربطها بمصير الإنسان ووجوده الضارب في أعماق تاريخ الأرض وفي أدقّ تفاصيل الأشياء. واستعمل لنقل تلك المعاني، كلمات قويّة الإيحاء بالرغم من بساطتها وإشراق معانيها، كلفظ مشرّشون (شديدو الالتصاق) الذي يوحي بالإصرار والتمسك الشديد بالأرض. وابتكر الشاعر أسلوبا جديدا لمحاججة الغاصبين، فخاطبهم بما يفهمون وساير طبيعتهم الدينية المتطرّفة وتستُّرهم وراء خرافات استباحوا بها مقدّسات المسلمين، فاستوحى لهم صورا فاضحة مستوحاة من سيرة نبيهم موسى، وواجههم بحقيقتهم البربرية، فتشبيه إسرائيل بأمريكا ليس من قبيل الصدفة، بل هو تلميح إلى تحالفهما واعتمادهما على أسلوب همجي واحد، غايته تهجير أهل الأرض وإبادتهم.

ونلاحظ أنّ نزار قباني يركّز كثيرا على تكثيف الدلالة الشعرية عن طريق الرمز وتوظيف التراث، فقد كثرت الرموز المستوحاة في الغالب من الطبيعة، كما كثُر توظيف التراث الديني قصد مواجهة الكذب والتلفيق الصهيوني، فوظّف قصة موسى مع فرعون لتأكيد حتمية انتصار الحق على الباطل ولو بعدحين.

إنّ قصيدة نزار قباني تكشف أوجه التطور الذي بلَغَته القصيدة المعاصرة في تناول القضية الفلسطينية، فبين لغة مشرقة شديدة الإيحاء، وحجج تاريخية واقعية، وصور مستوحاة من الأشياء البسيطة التي تصادفنا في واقعنا المعيش حينا ومن التراث العتيق حينا آخر، يُفلح الشاعر في تشكيل مزيج جميل من مكوّنات تاريخية ودينية وسياسية قادرة على إضاءة أعماق المأساة الفلسطينية أمام أعين القراء.

وبأبعاد رمزية جميلة، يرصد الشاعر الفلسطيني محمود درويش التلاحم التام بين الإنسان والأرض في قصيدة (العصافير تموت في الجليل)، فقال:

نلتقي بعد قليل

بعد عامٍ

بعد عامين و جيلْ..

و رَمَتْ في آلة التصوير

عشرين حديقهْ

وعصافيرَ الجليل.

ومضتْ تبحث، خلف البحر،

عن معنى جديد للحقيقة. –

وطني حبل غسيل

لمناديل الدم المسفوك

في كل دقيقهْ

وتمددتُ على الشاطئ

رملاً.. و نخيلْ.

فالشاعر شديد التمسك بالوطن، يصرّ على التضحية من أجله بدمه المسفوح كل يوم، دون أن يؤثر فيه تعاقب أزمنة المُعاناة، فهمّه الوحيد إثبات الحقيقة التي طالما سعى المُحتلّ إلى طمسها.

ولمحمود درويش شعر كثير تيمتُه المركزية هي القضية الفلسطينية، حتى لُقّب بشاعر الأرض. ومن أقوى ما قال في مقارعةاليهود بالكلمة، قصيدة (عابرون في كلام عابر)، ومنها:

أيها المارُّون بين الكلمات العابرة

احملوا أسماءكم وانصرفوا

واسحبوا ساعاتكم من وقتنا، و انصرفوا

وخذوا ما شئتم من زرقة البحر و رمل الذاكرة

و خذوا ما شئتم من صورٍ كي تعرفوا

أنَّكم لن تعرفوا

كيف يبني حجرٌ من أرضنا سقف السماءْ...

أيها المارُّون بين الكلمات العابرة

منكم السيف – ومنَّا دمنا

منكم الفولاذ والنار- ومنَّا لحمنا

منكم دبابة أخرى- ومنا حجرُ

منكم قنبلة الغاز- ومنا المطرُ

وعلينا ما عليكم من سماء وهواء

فخذوا حصتكم من دمنا وانصرفوا

وادخلوا حفل عشاء راقصٍ.. وانصرفوا

وعلينا، نحن، أن نحرس ورد الشهداءْ.

و علينا، نحن، أن نحيا كما نحن نشاء!

أيها المارُّون بين الكلمات العابرة

والقصيدة طويلة، تركت صدى واسعا وأثرا شديدا في نفوس أصحاب الحق والمغتَصِبين معًا.

وختاما، يجدر القول إنّ القضية الفلسطينية كانت منذ ظهورها مَحّطّ اهتمام الشعراء من كل الدول العربية، سواء المحدثين منهم والمعاصرون، حتى أنّ شعراء الجزائر قد خصصوا لها حيّزا واسعا، حتّى وهم يواجهون الاستعمار الفرنسي في أحلك فترات تسلطه، لأن لفلسطين مكانة روحية وتاريخية وسياسية مميّزة في قلب العربي، ومَنفَذ كل الابتزاز الذي مارسته القوى العظمى في حق الدول العربية منذ فجر العصر الحديث.

جامعة عبد الرحمان ميرة. بجاية السنة الثالثة ليســـانس
قسم اللغة والأدب العـــــربي التخصص: دراسات أدبية

محاضرات في مقياس قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر

المحاضرة الثالثة: البُعد الوطني والقومي في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد: د. موسى عالم

الوطنيّة مصدر صناعي حديث النشأة، صيغ بزيادة ياء مشدّدة على الاسم (وطن)، والوطن (Patrie) هو البلد أو القُطر الذي ينتمي إليه الفرد من حيث جنسيته أو تابعيته ويسكنه شعب من الشعوب. والوطنية مفهوم حديث، يعبّر عن إحساس الإنسان بانتمائه إلى الوطن الذي ولد وعاش فيه وسكنه الشعور بحبّه والرغبة في خدمته والذّود عنه، انتماءً يقوم على صلة النسب والهوية والمصير، ويتبعه التزام المرء بحب ذلك الوطن والدفاع عنه والتضحية من أجله والسعي إلى الارتقاء به بين الدول والبلدان. ولمفهوم الوطنية جذور ضاربة في القدم، قدم الجماعات البشرية التي استوطنت بقاع الأرض، ووحّدتها أنواع شتى من الروابط العرقية والإثنية والمادية. فقد كانت القبيلة وطنا للعربي القديم، يرتبط بها برابطة النسب والمصلحة والموقع الجغرافي، بينما قامت الروابط الدينية مقام العصبية القَبلية بعد الفتوحات الإسلامية، وصار الانتماء الديني الرابطَ الأساس لبناء الوطن عند المسلمين وغيرهم من المجتمعات التي قامت على أسس إثنية، وكلّ واحدة من تلك الروابط تنشأ عنها واحدة من روافد الوطنية والانتماء. فالوطن، وفق التعريفات الحديثة هو **كل جماعة ثقافية مرتبطة، إمكانا وليس بالضرورة، بأصل مشترك وتجمعها روابط مدنية، أي أنّ الوطنية مرتبطة أساسا بمفهوم الدولة القُطرية المدنية، فكل، بلد من الأمة العربية مثلا هو قُطر يرتبط أهله بروابط مدنية في الأساس ويكنون له مشاعر الوطنية.**

لقد اصطبغت الوطنية بمفهومها الحالي بألوان السياسة الحديثة التي تمخض عنها انقسام الأمة إلى أقطار ودول، تربطها في الغالب عناصر الهوية اللغوية والدينية والعرقية، بينما تفرقها الحدود الجغرافية والأنظمة السياسية المختلفة التي تحكمها، كما أنّ الوطنية بمفهومها الجديد قد ازدهرت في سياق موجات المدّ الاستعماري الحديث وما قابلها من حركات التحرر التي اندلعت في شتى ربوع الوطن العربيّ، فهي تستمدّ أغلب طاقاتها من جذوة المنافسة والصراع مع الآخر/المستعمر.

شهد العصر الحديث ميلاد مفهوم جديد قريب من مفهوم الوطنية وهو (القوميّة) التي تعدّ أوسع دلالة من الوطنية، فشعور الانتماء فيها يتجاوز الحدود الجغرافية والروابط المدنية ليقوم على أساس إثني – ثقافي، حيث يمكننا **تعريف الأمم والهوية القومية باعتبار الأصل أو الإثنية أو الروابط الثقافية المشتركة، كالقومية العربية التي تشكلت على أساس الروابط الثقافية المتمثلة في اللغة والقيم الروحية (المتقاربة)، دون النظر إلى عامل الدين والجغرافيا.**

تعني الأمة (Nation) جماعة من الناس يستوطنون رقعة جغرافية معلومة، يتكلمون لغة واحدة غالبا،ولديهم قيم روحية وأخلاقية متشابهة وتاريخ مشترك ومصير مشترك.ومنه اشتُق لفظ القومية (Nationalité).

الشعر الوطني: ما تغنى فيه الشاعر بوطنه تمجيدا ونُصرة وتخليدا، أمّا الشعر القومي فهو ما تجاوز به صاحبه حدود القُطر الذي ينتمي إليه وأعلى به شأن القوم الذين ينتمي إليهم ولو لم يجمه بهم وطن واحد. «فالشعر الوطنيّ ما تعلّق بقضية الوطن أو الشعب الذي يقطن قطرامعينا، وهو أضيق من مدلول الشعر القومي الذي يشمل الأمة أي مجموعة الشعوب الشقيقة »[17]

أسباب ظهور الوعي الوطني والقومي:

ظهرت أولى ملامح التيار الوطني والقومي في الأدب العربي منذ فجر العصر الحديث، فقد شهدت نهايات القرن 18م ميلاد وعي جديد بخطورة الفساد والتخلف الذي لحق بالأمة العربية طيلة فترات استبداد الأتراك والمماليك. وقد كشفت الحملة الفرنسية للعرب فداحة ما خيم عليهم من تخلف وانحطاط وتبيّنت حقيقة الحكم العثماني وغاياته المتمثلة في خدمة الدولة المركزية ورعاية مصالحها تحت شعار الإسلام، مقابل الإهمال التام لكل ما يمتّ بصلة للفكر والثقافة العربيين. أمّا مراكز القرار والسلطة فقدحرص العثمانيون على إبقائها حكرا على أبناء جلدتهم، مما أيقظ الضمائر وأوقد في النفوس جذوة وعي القومي، وكانت ثورة عرابي خير مترجم للمشاعر القومية الجديدة التي زاد من تأجيجها تعاون الأتراك مع نابوليون وتخاذلهم عن حماية مصر آنذاك. ثمّ جاءت موجات الاستعمار الغربي الحديث التي اجتاحت العالم العربي منذ بدايات القرن التاسع عشر لتُحدث تحولا جذريا في مسارات الوعي الوطني لدى الإنسان العربي عامّة، والجزائري بشكل خاصّ، فإذا كان الوجود العثماني قد حظي من قبلُ، بنوع من القَبول بين العرب، إمّا بحكم رابطة الدين التي جمعت بين الأتراك والعرب، أو بذريعة الحماية التي كان هؤلاء يوفرونها للعرب، قبل أن ينكشف الوجه الاستبدادي لوجودهم، فإنّ الغزاة الغربيين قد قوبلوا بالرفض والثورة منذ وطئت أقدامهم أرض الشرق، ومافتئت مشاعر العداء التي حفرتها الحملات الصليبية عبر التاريخ أن أزبدت في مواقف الأدباء والمثقفين قبل غيرهم من عامة الشعوب، فانبرى جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لمواجهة المستعمر فكريا في الشرق، بينما جمعَ الأمير عبد القادر وغيره من طلائع الثورة في المغرب العربيّ بين سلاح السيف وسلاح القلم، فشقّوا للمقاومة نهجا وأشعلوا للثورة جذوة، استمرّ لهيبها مُتّقدا في أشعار محمّد العيد آل خليفة ومفدي زكريا وغيرهما من شعراء الجزائر، وامتدّ وهَجها إلى العالم العربيّ فراح شعراء العرب يتغنون بثورة الجزائر شرقا وغربا، كل بطريقته، تقديسا وإكبارا أو حبا وإعجابا.

بواكير الشعر القومي في الأدب العربي:

بالرغم من أنّ جلّ النقاد يتفقون على أنّ ثورة أحمد عرابي كانت السبب الأساس لميلاد طلائع النهضة الشعرية في بلاد العرب، «فإنّ بواكير الشعر القومي بنزعته العربية الصافية لا نجدها إلا في الشام والعراق والمهجر وبخاصة لدى عدد من الشعراء العرب المسيحيين الذين لم يستشعروا بحكم عقيدتهم أية صلة - دينية أو قومية – تربطهم بالترك وتجعلهم يستمرون في الخضوع لهم. »[18] ومن أقدم بواكير الشعر القومي العربي الأبيات التي نظمها الشاعر السوري أمين بن خالد الجندي (ت 1841) الذي شارك في إحدى الثورات ضد الأتراك فقبضوا عليه وسجنوه سنة 1830:

سلبوا البلاد من العياد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمــوّلا

والملك ملك الله يؤتيه لمَـــــن قد شاء لا هو بالورثة والــولا

من يخبر الأتراك أنّ جيوشهم هُزمت وأنّ (حُسْينَهم) ولّى إلى[19]

فالأبيات تحمل بوادر ثورة قومية في وجه الأتراك ووعيا جديدا لحقيقتهم الاستعمارية، ما فتئ يتحوّل إلى حملة توعية خاضها الشعراء لزرع الشعور القومي الوطني في النفوس.

وفي الوقت الذي كان فيه محمود سامي البارودي ينظم شعرا يفتخر فيه بمشاركته في حرب البلقان ضد روسيا، كانت بوادر التمرّد على الأتراك قد ظهرت قوية في أشعار رزق الله حَسّون (1825 – 1880) بالشام، ومنها أبيات أظهر فيها فرحته بانكسار شوكة الأتراك أمام الروس، فقال:

كم حروب للروس دارت على التر ك رحاها فغادرتها طَحينا

هكذا تدور على الباغي الليـــــــــــــالي ويهلك المجرمونا

لقد كانت تجربة المنفى التي عاشها محمود سامي البارودي إلى سرنديب وبعده أحمد شوقي إلى الأندلس سببا كافيا لإيقاظ المشاعر الوطنية والقومية لديهما، ليس بدافع الحنين فحسب، بل بدافع الشعور بالمسؤولية تجاه الثورات العربية الحدء .فقد قال أحمد شوقي ، بعد عودته من منفاه فقال:

ألست –دمشق- للإسلام ظئرا ومرضعة الأبوة لا تُعَـــــق

صلاح الدين، تاجك لم يحمـل ولم يوسم بأزين منه فَـــرق

سماؤك من حلي الماضي كتاب وأرضك من حُلى التاريخ ورق

بنيت الدولة الكبرى ومُـــلكا غبار حضارتيه لا يُشَـــــق

وللأوطان في دم كل حرٍّ يَـــدٌ سلفت ودينٌ مُستَحَـــــــق.

ومن رواد الشعر القومي الحديث، الشاعر اللبناني الشيخ نجيب الحداد (1867- 1900) الذي نظم شعرا يتفجر حماسة وشعورا وطنيا، فقال:

آن الأوان لأن أُخاطـــــر بالدم من لم يخاطر بالدم لم يسلم

أجزيرة العرب التي أحببتهـــــا كَم مِن أَكفّ قد رَمتك بأسهُم

لعبت أكفّ الترك فيك وغادرت في كلّ قطر منك نهرًا من دم

فأبيات الشاعر تنمّ عن وعي وطني ثوريّ جديد، حيث عمد إلى كشفت حقيقة الوجود العثماني وغاياته الاستعمارية في البلاد العربية. القضايا يكشف للقارئ حقيقة الأتراك ، يَحدوهُ شعور قويّ بحب الوطن والغيرة عليه، وتلك أبرز علامات تبلور الوعي الوطني القومي في نفوس الشعراء.

أمّا الشاعر المفكر السوري أديب إسحاق فكان من أبرز أعلام التيار القومي في تلك الفترة، وكان له شعر صار مَضرِب مَثلَ في الحديث عن الوطنية والقومية، من أشهره قوله الذي ينمّ عن حكمة بالغة ونظرة استشرافية ثاقبة:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

لقد كانت ثورة الشعراء في وجه الاستبداد التركي فاتحة وعي جديد، وبداية للحركات الأدبية المناهضة لجميع أشكال التواجد الأجنبي في بلاد العرب.

تطور الشعر القومي والوطني العربي:

اكتسب الشاعر العربي بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من نكبة فلسطين سنة 1948 وعيا وطنيا وقوميا واضح المعالم،قادرا على استيعاب الراهن المظلم، فلم يعُد للشاعر بعد اشتعال الثورات عن مواجهة بُدّ من مواجهة المغتصب ومساندة أصحاب الحقّ علنًا.

كانت ثورة الجزائر أبرز الثورات العربية التي أسمعت بعنفوانها آذان الشرق والغرب، وكان أول من التقط صداها شعراء المغرب العربي الذين أدركوا بأن مصائر بلدانهم مرهون بنصرتها، فقد استهل الشاعر المغربي محمد بن إدريس العمراوي قصيدته بتحذير المغاربة من الغفلة ، وإثارة الحماس فيهم لمقاومة الفرنسيين فقال:

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد فالكفر قد شاركم في البلاد

والشرك قد نصب أشراكه مستعبدا بكيدِه للعبـــــاد

ويا حماة الدين ما صبركم والمشركون يطلبون البـــداد

ما هذه الغفلة عن ضدكم وأنتم في الحرب أسد الجلاد

فالقصيدة تحمل، رغم تدني مستواها الفني، خطابا ثوريا ووعيا مبكرا بحقيقة الغزاة الفرنسيين. ولنا في الشعار الكثيرة التي خلّدت ثورة الجزائر وآزرها خير دليل على ما اكتسبه الشاعر العربي من رؤية واسعة لمفهوم الوطن وحتمية ارتباط مصير ببقية أوصال الأمة التي ينتمي إليها. وبالمقابل فإن شعراء الجزائر لم يمنعهم تَجَرُّدَهم لمواجهة العدو من تخصيص حيّز واسع من كتاباتهم، يقاسمون فيه بقية الأقطار العربية معاناتهم، وفي ذلك قال مفدي زكريا:

أما تنَهَّدَ بالجزائر موجَـــــع آسى الشام جراحه و توجّـــعا

واهتز في أرض الكنانة خافــق وأقض في أرض العراق المضجعا

وارتج في الخضراء شعب ماجد لم تثنه أرزاؤه أن يفـــــــــزعا

نظم الشاعر هذه القصيدة وهو في سجن برباروس، فلم تمنعه معاناته من مشاركة بقية الأوطان العربية جراحاتها.

محاضرات في مقياس قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر

د. موسى عالم

المحاضرة الرابعة: قضية الالتزام في الشعر العربي الحديث والمعاصر.

تمهيد:

كانت نتائج الحرب العالمية الثانية على الأمة العربية كارثية، فقد استفاقت شعوبها على واقع سياسي واجتماعي مرير، تطبعه الخيبة والبؤس وهمجية الآلة الاستعمارية، فقد نكثت فرنسا عهدها الذي قطعته على الجزائريين بمنحهم الاستقلال، فقابلت فرحتهم بمجازر الثامن من ماي الوحشية، واستيقظ الفلسطينيون على وقع هزيمة 1948، فضاعت منهم الأرض وقوبلوا بالقمع والتشريد بينما خيّم على جلّ أقطار الأمة التخلف والفقر، فلم يبق للشعراء بدٌّ من التخلّي عن أحلامم وبروجهم الرومانسية، ليواجهوا واقع بلدانهم، ويلتزموا بلملمة جراحها والدفاع عن قضاياها.

تعريف الالتزام:

الالتزام (Engagement) في الأدب فكرة حديثة، تحيل إلى دلالات فلسفية وأخلاقية واجتماعية، وهو من المصطلحات التي نالت حظا كبيرا من الدراسات الفلسفية الحديثة، ومنه انتقلت إلى الأدب والفنّ، حيث ارتبطت دلالته في الفلسفة الوجودية بالرغبة في تعديل الحاضر لبناء المستقبل عموما، سواء أتعلق ببناء المجتمع والدولة أم ببناء الإنسان، فالأديب الملتزم هو الذي يوجّه إبداعه، كلّه أو جُلّه، لخدمة قضيّة يؤمن بها ويتوق إلى نُصرتها، حيث «يدرك الكاتب الملتزم أنّ الكلام عمل ويعلم أنّ الكشف نوع من التغيير وأنه لا يستطيع الكشف عن شيء إلا حين يقصد إلى تغييره.» [(20)]، ومن ثمّ فإنّ إرادة تغيير الواقع هي التي تقود الكاتب الملتزم نحو معالجة قضايا عصره وبلده وأمته وجيله والكشف عنها وعمّا يتخللها من اختلالات، قصد تقويمها وعلاجها. وتنهض فكرة الالتزام، في حقل الفنّ والأدب على الارتباط الوثيق بقضية اجتماعية أو سياسية يعبّر عنها الكاتب، والتأكيد على الدور الاجتماعي للأدب، فمَهَمَّة الأديب الأولى، من هذا المَنظور، تتمثّل في نشر الوعي ومعالجة الواقع بشتى قضاياه ومشكلاته.

إنّ الأديب شخص مثقّف، يحدوه الوعي العميق بمشكلات عصره، فهو يعيش التجربة ويلاحظ حيثياتها من الخارج، وينهمك في تجارب الحياة العملية ويفكر فيما يعتريها من عيوب واعتلالات وما يليق بها من حلول وعلاجات، ولا يكتفي بالتصوير السطحيّ والوصف الخارجي للعالم، وفي هذا يقول سارتر: «لم نعد بعدُ مع أولئك الذين يريدون تملك العالم ولكن مع من يريدون تغييره. وإنما يكشف العالم عن أسرار وجوده بمشروع التغيير نفسه» [(21)]، لهذا فإنّ أوّل شروط الالتزام أن يتسلح الأديب بالوعي والعمل ويبنى مشروعا هادفا إلى تغيير العالم.

لازمت فكرة الوظيفة الاجتماعية للشعر الشاعر العربيّ القديم فدفعته إلى الارتباط الدائم بقضايا مجتمعه ومعتقده وقيَمه وانتمائه السياسي، فجسّد في شعره نوعا من الالتزام بمفهومه العام الواسع، وليس ذلك ما يهمّنا في مقامنا هذا، وإنّما نسعى هنا إلى التعريف بالالتزام كفكرة نابعة من معتقدات سياسية واجتماعية حديثة، وعلى رأسها الفكر الاشتراكي الذي وجدت المجتمعات العربية المعاصرة في شعاراته الكبرى استجابة لتطلعاتها، ومنها الكتابة للشعب بلغة الشعب والالتزام باهتمامات الطبقة الكادحة، وهي شعرات مارس سلطة الإغراء على فئات واسعة من شعرائنا المعاصرين المتطلعين للعدالة والحرية، لقد «كانت الدعوة إلى الأدب الملتزم قد وجدت اكبر دعم لها على صفحات مجلة الآداب التي تأسست عام 1953، لكن كثيرامن المجلات والصحف الأخرى ساهمت في ذلك الدعم.

لقد جاءت هذه الدعوة في بواكير القرن العشرين ولم يكن دافعها الأول الوظيفة الاجتماعية الطبيعية التي كانت قد لازمت الشعر العربي التقليدي في تاريخه الطويل، بل كان دافعها الآن معتقدات اجتماعية سياسية حديثة» [22]، وعلى هذا الأساس قامت الدعوة الجديدة إلى الالتزام بالشعب وبقضاياه المصيرية، وظهرت فئة من الشعراء يدعون إلى الأدب الملتزم القائم على المبادئ الماركسية في الشعر الحديث والمعاصر في غرضين بارزين هما : الشعر الاجتماعي و الشعر السياسي. ونعني بالأول الشعر الذي يتناول قضية اجتماعية بالوصف والتحليل والتنقيب عن الأسباب والتفكي في الحلول. أما الثاني (الشعر السياسي) فهو الشعر الذي يُنظَم في شأن من شؤون السياسة، يدعو به الشاعر لبلد أو قبيلة أو حزب أو دولة أو لمبدأ متصل بالسياسة كالاشتراكية والديمقراطية.

إنّ فكرة الالتزام في الشعر العربي المعاصر قد تأثرت بعدّة عوامل، أهمّها النظريات الماركسية والأفكار الوجودية التي حملها جون بول سارتر في خمسينيات القرن العشرين، حيث كان أول من رفع شعار الأدب الملتزم، وتتلخّص فكرته في أنّ واجب الأديب الأوّل هو الالتزام بتجديد اللغة والوقوف ضدّ الظلم ثم تصوير العالم والشهادة عليه. [23]

والشاعر الملتزم هو الذي يوجّه شعره لخدمة الوطن، والثورة، والمجتمع، فهو يسعى إلى تحقيق الحرية والانعتاق من ربقة الاحتلال والاستبداد، والتخلف، والجهل، والتهميش،.كما يكشف المشاكل و أسبابها، ويبحث لها عن الحلول المناسبة بدل الاكتفاء بوصفها الإشارة إليها. ومن أبرز الشعراء العرب الملتزمين شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، وسميح القاسم، وسليمان العيسى، وأبو القاسم الشابي، وأحمد محرّم، وحافظ إبراهيم، ومحمود درويش، ومحمد الصالح باوية ونزار قباني.

رواد الشعر العربي الملتزم:

ساعدت الظروف السياسية والاجتماعية المعقدة التي شهدتها البلاد العربية مطلع العصر الحديث على ظهور شعراء ملتزمين في ا لوطن العربي منذ وقت مبكّر، فقد أدرك حافظ إبراهيم (1872م – 1934م) خطورة المشاكل الاجتماعية التي غرقت فيها فئات واسعة من المجتمع، فنظم شعرا كثيرا، كشف فيه صور المعاناة والبؤس مُقترِحًا ما كان يراه مناسبا لها من حلول، ومن شعره الاجتماعي قصيدته المشهورة (الأرملة المُرضعة):

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة والرجل حافية والدمع تذرفه في الخلد عيناها
بكت من الفقر فاحمرّت مدامعها واصفر كالورس من جوع مُحياها
الموت أفجعها و الفقر أوجعها و الهم أنحلها و الغم أضناها
فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآهُ مَقرون بمرآها

فقد كان الوصف الدقيق المُفصّل لمشهد للأرملة مع رضيعها دليلاً على وعي الشاعر لمأساتها الإنسانية، وسبيلاً إلى تحريك ضمائر الناس وحثهم على التكفّل بها. فحافظ إبراهيم شاعر يعي أنّ بناء مجتمع سليم لا يكون إلا بحماية أفراده وحفظ كرامتهم وحقوقهم وحرياتهم، وقد اعترف النقاد بأنّ حافظًا «قد عبّر في شعره عنالحرية القومية والحرية الشخصية، ولم يهمل أيا منهما، فهو شاعر الحياةالقومية في كلامه عن اللغة الفصح، وعن السّفور وعن الحجاب ... وعن أزمات المال والسياسة وعن مَضارب الأغنياء في سوق القطن، وإضرار الشركات بالبلاد. ثم هو شاعر الحياة الشخصية في شكواه وغزله وخمرياته ومُساجلاته، وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخَلَجات طبعه» [24]، فالتزام العقاد كان شاملا للفرد والمجتمع والأمة، دون أن يهمل الشاعر التعبير عن ذاته وحياته.

ويُذكر أنّ الشاعر المصري أحمد محرم (1877- 1945م)، كان من أوائل الشعراء الوطنيين الإسلاميّين الملتزمين بقضايا مجتمعهم وبلدهك ودينهم، «وكان محرّم يمثل روح الشاعر الثائر الوطني المخلص لدينه ولأمته ولوطنه، وقد بلغ في شعره الوطني والإسلامي الذروة، وكانت الإلياذة التي نظمها عملا جليلا في شعرنا المعاصر، وهي من أقدم نماذج الشعر الملحمي في شعرنا الراهن»[25]، فقد حاكى هذا الشاعر في ديوانه «ديوان مجد الإسلام»، إلياذة ملحمة هوميروس، وهي أقدم ملحمة أسطورية في الآداب الإغريقية القديمة، أرّخت لبطولات الآلهة والشخصيات الخارقة، أما قصيدة أحمد محرّم التي سمّيت «الإلياذة الإسلامية» كذلك، فقد بلغ طولها ثلاثة آلاف بيت شعري، فقام فيها بتصوير النموذج الأعلى للبطولة الإسلامية من خلال استعراض سيرة النبي صلى الله عليه وسلّم، وما تضمنته من غزوات ومعارك ووقائع، وفق تسلسلها الزمني الطبيعي، فصارت الإنجاز الأدبي الفريد الذي صنع شُهرة الشاعر، حيث يقول في مطلعها:

املأ الأرض يا محمّدُ نـــــورًا واغمر الناس حكمة والدُّهـورا
حجبتك الغيوب سرًا تجـــلّى بكشف الحجب كلها والستـورا
أنت معنى الوجود بل أنت سرّ جهل الناس قبله الإكســـيرا
أنت أنشأت للنفوس حيـــاة غيّرت كل كائن تغيـــيرا أنجب
الدهر في ظلالك عصـــــرًا نابِهَ الذكر في العصور شهـيرا
عَّب سيل الفســاد في كل وادٍ فتدفَّقْ عليه حتى يغـــــورا
جئَت ترمي عُبابَه بعُبـــــاب راحَ يطوي سُيولَه والبُحـــورا
أنت معنى الوجود بل أنت سرٌّ جهِلَ الناسُ قبلَه الإكســـيرا

تكشف هذه القصيدة عن عمق انشغال أحمد محرّم الشاعر بتردّي حال الشخصية العربية الإسلامية وحاجتها الماسّة إلى استعادة ثقتها بنفسها والعملِ لى استرجاع مكانتها التاريخية، فقد بدا حرص الشاعر على استقراء السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ليتمكن من رسم أدقّ تفاصيل النموذج الأسمى المتمثل في الرسول (ص) بأسلوب مُعاصر بيّن ولغة فصيحة قادرة على تمرير الرسالة الإحيائية بسلاسة إلى عقول الشباب.

ومن أبرز الشعراء الملتزمين في العصر الحديث الشاعر اللبناني بشارة الخوري الملقب بالأَخطل الصغير (1880 – 1968م)، فقد عُرف برقة شعره الذاتي حتى لقّبَ بـ"شاعر الحب والهوى" ولقب أيضًا "شاعر الصبا والجمال"، لكنه كان بالمقابل شاعر القومية العربية وشاعر لبنان الذي عالج مأساة الأمة العربية،لا سيما ما أصاب لبنان والعراق، وكان شعره ينبض بالروح القومية المعتزة بنسبها وأصالتها الواثقة في قدرتها على مواجهة الغزاة، وله في الإشادة بجهاد فلسطين قصيدة ثورية طويلة عنوانها (ياجهاداصَفَّقَ المجد له)، يقول فيها:

ياجهاداصَفَّقَ المجدُ لـــــــه لبس الغارُ عليه الأُرجُوانـــا
شـرفٌ بـاهَتْ فلسـطينُ بـــهِ وبنـاءٌ للمعالي لا يُـــــدانى
إنَّ جرحاً سـالَ من جبهتِهـــا لثمَتْـهُ بخشوعٍ شَـفَتانـــا
وأنينـاً باحت النّجوى بِـــــه عربيّاً رشـفَتْهُ مُقلتانـــــا
يا فلسـطينُ الّتي كِدْنـا لـمّـــا كابدَتْهُ من أمًى ننسى أسانا
نـحنُ يا أختُ على العـهدِ الّذي قد رضعْناه من المَهدِ كلانـا
يثـربٌ والقدسُ منـذُ احتلمَـا كعبتانا وهوى العربِ هوانـا
شـرفٌ للموتِ أن نـطعمَـــهُ أنفسـاً جبّارةً تأبى الهَوانـــا

وردةٌ من دمِنا في يـــــــدِهِ لو أتى النّارَ بها حالَتْ جِنانا
ضجَّت الصحراء تشكـــــو عُرْيَها فكسوناها زئيراً ودُخانا

لقد ارتبط مفهوم الالتزام لدى شعراء العرب منذ العصر الحديث بالوضع المأساوي الذي خلفته سنوات الحروب والاستدمار في البلاد العربية المستقلة حديثا، من فقر وجهل وتهميش، دون أن أن يتنازل الشاعر عن مساندة الثورات في بقية البلدان التي بيت تحت سطوة الاحتلال، وعلى رأسها فلسطين،فقد ارتبط هذا الشعر أساسا بأهداف وطنية قومية إصلاحية تحررية، بعيدا عن تجاذبات السياسة و الاختلافات الإيديولوجية، باعتبار أنّ الظروف التاريخية آنذاك كانت تفرض على الأديب المفكر تغليب المصلحة العامة المتمثلة في استكمال مشروع التحرير والتخلص ربقة التخلف، وتلك مسؤولية تاريخية لم تغِب عن وعي الشعراء، فقد شَغَلَت أوضاع الأمّة الشاعر الملتزم عن الإصغاء لأحاسيسه الفردية، وصار وجدانه متعلّقا بحالها ومعاناتها، ومن الشعراء الذين جسدوا هذا التوجه الشاعر المصري محمود غُنَيم (1902م . 1935م)، حين صوّر حال الأمة الإسلامية ويدعوهم إلى التلاحم في قصيدة بعنوان (وقفة على طلل)، فقال:

مالي وللنـجم يرعـاني وأرعـــــاه؟ أمسى كلانا يعاف الغمضَ جفناه
فيـك. ياليـل آهـات أرددهـــــــا أواه لـــو أجـــــدت المحـــزون أواه
لا تحسبني محبا يشتكي وصبَــا أهـون بما في سـبيل الحب ألقـــاه !
إنـي تـذكرت والذكـرى مؤرقـــة مجدًا تليدًا بأيديـنا أضعـنـــــاه
أنّى اتَّجَهتُ إلى الإسـلام بي بلـــــد تجده كالـطير مقصوصا جناحـاه
ويح العروبة! كان الكون مسرحها فأصبحـت تتـوارى في زوايـــــاه
كـم صرّفتنا يـدٌ كنّا نُصرّفهـــــا وبـات يملكنـا شـعب ملكنـــــاه

فأحاسيس الشاعر من حبّ وحنين وحزن وقلق مرتبطة بحال الأمة لا بحاجات فردية، وكأنّ تجربته الذاتية قد تماهت في تجربة أمّته العصيبة، وقد كان ذلك حال أغلب الشعراء الرواد من مدرسة البعث والإحياء الذين حافظوا على عامود الشعر وبناء اللغة واستلهموا ألوان البلاغة العربية، «فقد عايشوا هموم الأمة العربية، واستذكروا تاريخها المجيد، وتلبسوا بالإيمان الخالد المنقذ ورفعوا راية الإسلام بقناعة عقلانية ووجدان يفيض حبًّا »[26]، فلم يتنصلوا من مسؤولياتهم الفكرية والثقافية التي فرضتها عليهم الظروف الحضارية التي وُجدوا فيها، حتى صار الالتزام نهجا سَلكه من تلاهم من الشعراء المعاصرين، فلم نجد منهم شاعرا لم تشغله قضايا أمته وعصره، وإن كانوا في التزامهم درجاتٍ وأنواعا وتوجُّهات مختلفة، فظهرت في الأدب العربي الحديث والمعاصر أنواع كثيرة من الشعر الملتزم، هي:

1- **الشعر السياسي**: هو الشعر الذي يتناول شأنا من شؤون السياسة، كأن يدعو لمذهب سياسي أو لحزب من الأحزاب أو لفكرة نتعلقة بالسياسة، وهو لون يمتد بجذوره إلى العصر الجاهلي حين كانت القبائل تتخذ الشعر وسيلة للدعاية والفخر، بينما تبلور واستقل بنفسه عن بقية الأغراض مع بداية العصر الأموي الذي شهد أول ميلاد للأحزاب المنبثقة عن الصراع الدائر بين أهل البيت والأمويين فظهرت إلى الوجود أحزاب الشيعة والأمويين والخوارج والمعتزلة. ثم عاد هذا الغرض إلى الانتعاش بقوة في العصر الحديث في ظل ميلاد الحركات والأحزاب والأنظمة السياسية في الوطن العربي.

أ- **الشعر السياسي الوطني**: وينظم فيه الشعراء لوصف أوطانهم والتعبير عن حبهم لها وتعلقهم بها.

ب- **الشعر السياسي القومي**: اهتم الشعراء بجميع مناحي الحياة ذات الصلة بالسياسة، ولم يقتصر شعرهم على ما يقع في بلدانهم فقط، وإنما شمل جميع أحداث الوطن العربي الإسلامي، والشعر القومي هو ما تجاوز في

موضوعه حدود الوطن، وأبدى فيه صاحبه اهتماما بشؤون الأمة كاملة، كقول الشاعر النهضوي العراقي جميل صدقي الزهاوي (1863 – 1936):

إنّ العروبة ليس تأمن غارة المستعمرينا
إلا بوحدتها ونِعْـــمَ وسيلُ المتفكرينا
وهي التي اتحدت قديما بينها لغة ودينـــا

فالشاعر ينطلق من فكرة قوية، يحدوها الإيمان بأن الأمة العربية الإسلامية تملك أكبر القواسم المشتركة التي لو تمسّكت بها لكانت أمة لا تُقهر، اللغة والدين.

ج- **الشعرالسياسي التحرري**: ارتبط هذا النوع بحركات التحرر العربية، ونشط ابتداء من القرن العشرين بسبب ظروف الاحتلال، حيث نظم أغلب الشعراء قصائد كثيرة يستنهضون بها شعوبهم للتحرر من الاستعمار بشتى أشكاله، ويؤازرونها في ثوراتها، ويساعدونها في الدعاية لقضاياها، ومن أمثلة هذا النوع إلياذة الجزائر لمفدي زكريا التي سايرت بإيقاعاتها القوية ونبرتها الثورية عنفوان الثورة الجزائرية التي أسكتت كل كلام سوى لغة السلاح، فقال:

تأذَّن ربُّك ليلـة قَـــــــدر والقى الستار على ألف شهر
وقال له الشعب ..أمرك ربّي وقال له الربُّ ..أمرُك أمــري
ولعلعَ صوت الرصاص يدوي فعاف اليَراعُ خُـــرافة حِبـر
وتأبى المدافع صَــوغ الكلام إذا لم يكن من شُواظٍ وجَمر
وتأبى القنابل طبعَ الحروف إذا لم تكن من سبائك حمر
وتابى الصفائح نشر الصحائف مالم تكن بالقرارات تسري
ويأبى الحديد استماع الحديث اذا لم يكن من روائع شعري

2- **الشعر الاجتماعي**: هو الشعر الذي يتناول صراحة وبشيء من التحليل والتفصيل قضية من قضايا المجتمع كالعدالة الاجتماعية، وحقوق المرأة ونشر العلم ومشاكل العمل ومحاربة الانحلال الرذيلة والحث على الإصلاح عموما، ويكون بتشخيص الداء وتحديد العلة ثم اقتراح الحلول والعلاج، وقد تناول الشاعر العربي الحديث مواضيع اجتماعية كثيرة، أسهم بها في نشر الوعي الاجتماعي وترقية الانسان العربي، ومن أكثر الشعراء التزاما بنشر الوعي والأخلاق السامية شاعر النيل حافظ إبراهيم في قصيدته (العلم والأخلاق) حيث قال :

والمال إن لم تدخره محصنا بالعلم كان نهاية الإمـــلاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفـــاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخَـــــلاق
من لي بتربية النساء فإنهـــا في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتهـــا أعددت شعبا طيب الأعراق

فالقصيدة تعليمية، التزم فيهاالشاعر بترسيخ القيم التي تحافظ على أصالة الأمة وهويتها لتتمكن من مواجهة المدّ الفكري الغربي الحديث.

القصيدة الملتزمة و إيديولوجيا العصر:

تأثر الشعر العربي المعاصر بمختلف التيارات الإيديولوجية السائد حديثا، وبالفكر اليساري (الاشتراكي) خصوصا، لما وجد فيه من مبادئ تدعو إلى الثورة على الطبقة البورجوازية وتدافع عن حقوق العمال والطبقات الكادحة، فقد لاقت استحسانا كبيرا في المجتمعات العربية التي كان الفقر والبؤس فيها جزءًا من يوميات الغالبية العظمى من أبنائها. ويظهر هذا التوجه جليا من خلال تخلي بعض الشعراء عن سَوق المبررت الدينية في معالجتهم

لمعاناة الإنسان، وتركيزهم، وتناولهم للأمراض والمشاكل الاجتماعية من مَمنظور الصراع المادي بين طبقات المجتمع ، وذا ما نلمسه في أشعار جل الشعراء المعاصرين أمثال بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وعبد الله البرَدوني ومحمّد الماغوط. ففي قصيدته (مذكرات رجل مجهول)، يبدو تأثر البياتي بانتمائه الإيديولوجي اليساري واضحا في معالجته لمعاناة أبناء وطنه، فيقول:

أنا عامل، أُدعَى سعيد
من الجنوب
أبواي ماتا في طريقهما إلى قبر الحسين
وكان عمري آنذاك
سنتين - ما أقسى الحياة
وأبشع الليل الطويل
والموت في الريف العراقي الحزين-
وكان جدي لا يزال
كالكوكب الخاوي، على قيد الحياة

تصور لنا القصيدة حالة الريف والواقع اليومي للإنسان العراقي المَحزون بأوجاع المدينة، حيث الظلام والبؤس والقتال، وتكالب الغزاة على أحلام الناس في المدينة المسالمة. بينما ارتكز الخطاب الشعري فيها على الرمز، فكشفت فاتحتها (العامل) صدور معانيها من رؤية وفكر ماركسي مساند لطبقة العمال الكادحين، لتقدّم للمتلقي قراءة إنسانية متأنية للواقع العراقي. إنّ معاناة الفقراء والكادحين مستمرة في العراق بسبب الفقر والجهل، بالرغم من أنّ في بلده العراق،واحد من أكبر رموز الثورة والإصلاح، وهو الحسين بن علي، الذي يرى فيه الشيعةشهيد الثورة ضد الفساد، ولو أنّ الشعب العراقي ثبت على مطالبه كما ثبت الحسين لما هزمته سلطةٌ فاسدة، تسعى إلى رهن حاضره ومستقبله. أما رمز (جدي) فعكس ثورة الشاعر على القديم وطموحه إلى تغيير أسلوب الحياة وطريقة التفكير الخاطئة التي دَأَبَ عليها الشعب.

كان الخطاب موجها في هذه القصيدة إلى السلطة الملَكية وإلى الملك شخصياً، ومن ورائه القوى الرجعية التي ما فتئت تزداد ثراء على حساب بؤس الشعوب ومعاناتها، فتصبح القصيدة وميضا من وَعيٍ ثوري شاعري يفضح جشع الأغنياء وجدارا تتحطم عليه آمال المستغلين،حيث يخبر الملك بأنّ الغدَ الحرَّ سيأتي بمجرّد أن يستفيق المستضعفون من غفوتهم، فيقول:

مولاي ! أمثالي من البسطاء لا يتمردون
لأنهم لا يعلمون
بأن أمثالي لهم حق الحياة
وحق تقرير المصير
وإن في أطراف كوكبنا الحزين
تسيل أنهار الدماء
من أجل إنسان، الغد الآتي، السعيد
من أجلنا، مولاي أنهار الدماء
تسيل من أطراف كوكبنا الحزين

إنّ القصيدة حاملة لأفكار ورؤى إيديولوجية دينية ويسارية جديدة، اقتنع الشاعر بأنها هي التي تصلح حلا لمشاكل الإنسان العربي المعاصر، وليست القيم الإسلامية التي تمسك بها رواد الإصلاح.

لقد شاعت في القصيدة المعاصرة رموز جديدة عبّر بها الشعراء عن معاناة الإنسان المعاصر، كالمدينة والسور والجدار والإسمنت والشوارع الضيقة. فالجدار عند الشاعر المصري أحمد عبد المعطي حجازي (ولد عام 1935م)، مثلاً، يشكل رمزًا من رموز المعاناة في المدينة، ويتكرر كثيرا في ديوانه "مدينة بلا قلب" وكأنه يضطهد الشاعر ويلاحقه أينما كان، فيقول في قصيدة (كان لي قلب):

وعدتُ.. تَدعُني الأبوابُ
والبوّابُ، والحاجبْ!
يدحرجني امتدادُ طريقْ
طريقٍ مقفرٍ شاحبْ
لآخرَ مقفرٍ شاحبْ
تقومُ على يديه قصورْ
وكان الحائطُ العملاق يسحقني
ويخنقني
وفي عيني.. سؤالٌ طاف يستجدي
خيالَ صديقْ
ترابَ صديقْ
ويصرخ.. إنني وحدي

كان الجدار والمدينة والأبواب الموصدة عند حجازي رموزا لغربة الإنسان العربي المعاصر المحاصر بشتى أنواع الاستبداد والقمع والفقر، حتى كاد يفقد إنسانيته وصلته بالطبيعة، فهو محاصر بالجماد والقسوة من كلّ جانب.

وتعدّ القضية الفلسطينية أبرز القضايا التي شدّت إليها الشعراء العرب المعاصرين على اختلاف توجهاتهم، حتى صارت أيقونة علامة دالّة على حضورهم واستجابتهم لروح العصر، فهم بين تمجيد لبطولات الشعب الفلسطيني وشحذ همّته والدعوة إلى نصرته وفضح لجرائم الاحتلال ودسائسهم، مع تفاوت واضح بين نسب التزامهم. يقول الشاعر الفلسطيني سميح القاسم[27] مخاطبا فلسطين في قصيدة (تعالي نرسم معًا قوس قُزح):

نازلاً كنت: على سلم أحزان الهزيمة
نازلاً .. يمتصني موت بطيء
صارخاً في وجه أحزاني القديمة:
أحرقيني ! أحرقيني .. لأضيء
لم أكن وحدي،
ووحدي كنت، في العتمة وحدي
راكعاً .. أبكي، أُصلي، أتطهر
جبهتي قطعة شمع فوق زندي
وفمي .. ناي مكسّر ..

كان صدري ردهة، كانت ملايين مئه

سُجَّدا في رَدهتي

كانت عيوناً مُطفأه! .

أصبحت الهزيمة جرحا من جراح الأمّة العربية كلّها ، فقد كانت صدمة هزّت كيانها ثقافيا وأدبيا واقتصاديا وعلميا وسياسيا، والقصيدة بدورها كانت موقفا من هذا الجرح الغائر في نفس سميح القاسم الشاعر، حيث اعترف بأنّ الحزن سيطر عليه فغاص فيه واستسلم له، ولم يعد يشعر بالحياة وقد أصبحت أحزانه المتراكمة أشبه بردهة أو عتمة ليل طويل، فرضي بأن يكون هو الشمعة التي تحترق من أجل الخلاص. واختار الشاعر كلمة (نازلا) ليدل على مُطاوعته للحزن وقَبوله به، بل إنّ نفسه قد توحّدت مع الحزن إراديا وغرقت فيه، في مشهد ينمّ عن بلوغ الشاعر مستوى عميقا من الألم، وإحساسا مُتناهيا بحجم الكارثة التي أصابت قلب الأمّة.

أما في الجزائر، فظلت الثورة الجزائرية تلهم الشعراء طيلة العقود التي تلت الاستقلال، وكأن التغنّي بها إحياء للأمل وتأكيد على أنّه لا وجود للمستحيل أمام إرادة الشعب، فثورة الجزائر قد قدّمت للأمة العربية درسا خالدا في الصمود والإصرار، وفتحت باب الثورة واسعا أمام المستَضعفين،

يقول الشاعر الجزائري عيسى لحيلح:

يكفيكَ في سمع الزمـان " نفمبر" فافخرْ فغيرُكَ بالهزيمـة يفخـــرُ

شهرٌ أضاء لنا السبيلَ إلى الهدى من قبلِ أن كِدْنـا نضلُّ ونكفـــر

شهرٌ ومِن طهر القلوب بياضُـــهُ أصفى، ومن خُضر المرابع أخضر

حاكتْه بالألــم المقدَّس أُمّـــةٌ بدم الشهيـد مطـرَّزٌ و مطهَّـــر

وقد عبّر الشاعر محمود درويش بصدق عن معنى الإصرار والثبات الذي يكمن فيه سرّ نجاح الثورةّ في قصيدة (رد الفعل) فقال:

وطني! يعلمني حديدُ سلاسلي

عنف النسور ورقّة المتفائلِ

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا

ميلادَ عاصفةٍ ... وعرس جداولِ

سَدُّوا عليَّ النور في زنزانةٍ

فتوهَّجتْ في القلب ... شمسُ مشاعلِ

لقد كان الالتزام بقضايا الشعب والوطن والأمة أمرا محتوما على كلّ شاعر عربيّ أطلّ من شرفات العصر الحديث، فلم يَرَ سوى صور الاحتلال والقهر والبؤس تغزو الأمة العربية المتهالكة،فأدرك حجم الدور الذي أسند إليه في نشر الوعي وفضح المظالم وزرع بذور الثورة، وقد هيَّأت ملابسات التاريخ ما يكفي من صور التخاذل التي مازادت الأمّة إلا تخلُّفا وهَوانا، وقصص البطولة الخارقة التي صنعت تاريخا حافلا بالنصر لشعوب كانت من قبل مَغلوبة على أمرها. لكن التزام الشعراء بقضايا الشعب والوطن والأمة كا متفاوتا، فمنهم من وهب كل أنفاسه للثورة والوطن كمفدي زكريا والبياتي، ومنهم من قلّ التزامه ومال إلى الموضوعات الذاتية كإيليا أبي ماضي ونزار قباني.ثمّ إن التزام الشعراء العرب كان يحدوه في بداية العصر الحديث روح عربية أو إسلامية في الغالب، لكنه تأثر فيما بعد بمختلف التيارات الفكرية الوافدة التي صارت الموجه الأساس لعديد الإبداعات الشعرية العربية المعاصرة.

محاضرات في مقياس قضايا النص الشعري الحديث والمعاصر

المحاضرة السادسة: الصورة الشعريّة في النص الشعري المعاصر. د. موسى عالم

تمهيد:

شهدت فترة الخمسينات من القرن الماضي حركة تجديد متسارعة مسّت جميع مكونات القصيدة العربية، فلم يقف التجديد عند حدود الثورة على الأشكال العروضية التقليدية، بل إنّ عين الشاعر قد انفتحت على لغة العصر بما تقتضيه من تجديد في معجمها وبنيتها واستثمارٍ لطاقاتها الرمزية والإيحائية، أما الخيال فتأثّر بتجارب العصر الجديدة التي خلقت لدى الإنسان حالات ذهنية معقّدة تعجز اللغة المباشرة عن التعبير ما يدفع الشاعر إلى التوظيف المكثّف للصورة والسعي الحثيث إلى اكتشاف صور جديدة، تمتزج فيها العناصر والمكوّنات العربية بعناصر دَخيلة فَرضها عامل الاحتكاك المباشر مع الثقافة الغربية.

المفهوم التقليديّ للصورة الشعرية:

تعدّ الصورة الشعريّة قوام العمل الشعريّ وركيزة الإبداع الأساس فيه، فهي وسيلة الشاعر للتعبير عن أفكاره ونقل الجوانب الخفية في تجربته الشعرية، بها ينقل مشاعره ويكشف عن رؤيته ويوضّح أفكاره ومعانيه، ويحقق المتعة الفنية لدى المتلقّي، ومن ثمّ فحسن تشكيل الصورة الشعريّة دليل على براعة الشاعر ونضج تجربته وصدق أحاسيسه.

يتميّز الشعر بكونه عملية إبداعة مادتها الكلمات، وقوامها الخيال والفكر الوجدان، بينما يبقى التصوير والتعبير وسيلتا الشاعر لرسم تلك الجوانب الإنسانية في القصيدة وإخراجها في شكلها الفني الجميل، وهذا أمر تنبّه إليه النقاد منذ القديم، حيث قال الجاحظ: "الشعر فنٌّ تصويريٌّ يقوم جانب كبير من جماله على الصورة الشعريّة، وحسن التعبير"[28] فالجاحظ يشير هنا إلى أنّ جمال الشعر مَنوطٌ بجمال التصوير، وأنّ عمليّة التصوير تعتمد على مهارتين أولاهما دقّة الخيال وثانيهما حسن صياغة ذلك وتحويله من صورة معنويّة مجرّدة إلى صورة محسوسة تحملها الكلمات فيدركها المتلقي ويتفاعل معها. ويعكس رأي الجاحظ التعريف التقليدي الذي كان قائماً على صلة التشابه بين الشعر والتصوير، والرسم، والتخييل، وعلى الاهتمام بالأشكال البلاغية للصورة: كالتشبيه، والاستعارة، والكناية.إنّ الصورة عند الجاحظ ضرب من الصياغة الشعرية، مثلها مثل اللغة الشعرية والوزن والقافية، ومفهومها مرتبط بمفهوم النظام الشكلي المتمثّل في (عمود الشعر)، حيث كان النقاد والبلاغيون العرب يعدّون الشعر مجرّد نسج وصياغة شكلية لبعض القواعد المتداولة بين الشعراء، فساروا على تقدير التشبيه "لأنّهم رأوا فيه جانبا من أشرف كلام العرب، وجعلوه أبين للشاعرية، وإخراج غير المحسوس وغير البديهي إلى المحسوس والبديهي"[29] بينما

اعتبروا التناسب بين أجزاء التشبيه شرطا لجماله وبلاغته، حيث "يراعى في التشبيه التناسب المنطقيّ بني الطرفين، أو العناصر المتشاهبة بحيث تبقى الحدود متمايزة وواضحة"[30]، فالصورة، من هذا المنظور، هي تمثيل وقياس عقليّ لأشياء مرئية واقعية، عن طريق النظم والرتكيب الصياغة، أي نقل الصورة الذهنية إلى صورة لغوية، وهو ما يُعرف اليوم بالصورة الشعرية التي تقوم على التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز.

لقد بقي هذا المهوم التقليدي سائدا بين الشعراء حتى مطلع العصر الحديث، حيث دأب الشعراء الإحيائيون على التمسّك بالأساليب التقليدية في بناء صورهم رغبة منهم في بعث الخيال العربي كركيزة أساس للشعرية العربية القديمة، فكانت صور البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم ومن حَدَا حَدوَهم صورا جاهزة سَلَفا، حيث كانوا يشبّهون بما شبه به القدماء ويستعيرون ممّا استعاروا منه، كما الصورة عند شعراء البعث عامة سطحية خارجية، تكتفي برصد العناصر الظاهرة السهلة الإدراك من جهة، وبمقابلة الأشياء ببعضها مقابَلة حسية لا تستثير العواطف المتداخلة ولا تغوص في أعماق النفس، بالرغم ممّا قد تحمله من تلوينات بلاغية ودقّة في رصد العلاقات الدقيقة بين طرفي التشبيه. ومن أمثلة التشبيهات القديمة قول الأعشى:

كأنّ مِشيتها من بيت جارتها مَرُّ السحاب، لا رَيث ولا عَجَلُ

اختار الشاعر عناصر هذا التشبيه التمثيلي بدقّة متناهية فاستعار للمرأة من السحاب الثّقل والامتلاء والسكينة والوَقار، غير أنّ هذه العناصر جميعها سطحيةٌ متعلّقةٌ بالشكل الخارجي المحسوس، فلا يحس المتلقّي من خلالها بذلك التوافق المنشود بين العالم النفسي الداخلي والعالم الخارجي ولا يَقف على امتزاج فعلي مع الطبيعة، ولقد سار الشعراء المحافظون في العصر الحديث على هذا النهج فوقعوا بدورهم في حكم النمطية وجمود الخيال، ولذلك، فما إن تخلّصت القصيدة الحديثة من أدران عصور الضعف واستعادت بريقها بالاستقرار على مسالك البلاغة القديمة حتى بدَأ الشعراء يحسّون بحاجتهم إلى ابتكار صور أكثر حيوية، تتخللها روح العصر فتكون قادرة على استيعاب مُتغيراته وتعقيداته بحيث يصل الشاعر بفضلها إلى إقامة توافق بين نفسه والعالم الخارجي المُحيط به.

معالم التجديد في الصورة الشعرية:

لقد كان الاحتكاك المتنامي بالشعر الغربي دافعا قويا للشعراء العرب كي يعملوا على إعادة النظر في عديد المفاهيم الشعرية القديمة كاللغة والوزن والخيال، فصاغوا مصطلحات جديدة تعكس تطلّعهم لتجديد القصيدةالعربيّة وكسر نمطيّتها، وتعيد النّظر في المعايير الفنّيّة السائدة. فبالرّغم من أنّ:"الصورة هي مصطلح حديث صيغ تحت وطأة التأثُّر بمصطلحات النقد الغربيّ والاجتهاد في ترجمتها، فإنّ الاهتمام بالمشكلات التي يشير إليها المصطلح قديم، يرجع إلى بدايات الوعي بالخصائص النوعية للفن الأدبي"[31] فمصطلح الصورة حديث لم يكن معروفًا في التراث النقدي عند العرب، وإن كانت القضايا المرتبطة به قديمة، فما مفهوم الصورة في الشعر المعاصر؟

يرى عزّ الدين إسماعيل أنّ "الصورة الحديثة كشف نفسيّ لشيء جديد بمساعدة شيء آخر"[32] فالصورة الشعرية مرتبطة في أساسها بذات الشاعر وبتجربته الفنية، فذات الشاعر تمتلك قدرة تمثيليّة تمكّنها من إعادة إنتاج الواقع في هيئة تمثيلات لا تستنسخ الواقع بل تعيد إنتاجه فنيا وجماليا بطريقة تتوخّى ترجمة العناصر الذاتية والخيالية التي ترافق الصورة المُتَمَثّلة، كأحاسيس الشاعر وانفعالاته، فتغدو صورة واقعية لكنّها، في الوقت ذاته، شديدة الارتباط بذات الشاعر، فهي صورة نابضة بالحيوية والانفعال وليس مجرّد تصوير ماديّ ميّت. ، فالصورة على حد تعبير إبراهيم رماني لم "لم تعد تنتمي في جوهرها إلى العالم الخارجي بقدر انتمائها إلى العالم الداخلي للذات المبدعة، ومن ثمّ لا يمكن أن نلتمس لها تفسيرا خارج نفس الفنان"[33] فقد صارت الصورة مرتبطة بالخيال والشعور وليس بالمحسوسات أو المرئيات، وحتى إن وظّف الشاعر كلمات حسيّة فالقصد من ذلك التوظيف ليس تمثيل صورة حسيّة بأخرى حسّية لتوضيحها أو لتضخيم صورتها كما كان سائدا في الشعر القديم، بل يقصد بها التمثيل الذهني لما يجول في ذات الشاعر وذهنه، ومن ثَمّ فالصورة بالمفهوم المعاصر "ليست تشبيها خالصا، ولا استعارة خالصة، ولا كناية خالصة،ولا أيّ مظهر من المجاز العقلي الخالص (...) وإنما هي مزيج من ذلكم جميعًا."[34]

لقد بدَأ الشعراء المعاصرون في توظيف الرمز والأسطورة وغاصوا بخيالاتهم في أعماق النفس البشرية بصور إيحائية تنأى بنفسها عن المُباشَرة والتصريح، حتّى غَدَت الصورة الحديثة غابة "كثيفة من الرموز المشحونة بدلالات سياقية 'علائقية' مبتكرة، يصعب فكّها والتواصل معها خارج منطقها"[35]،كما انتقلوا في تعاملهم مع عناصر الطبيعة من مَنطق التوظيف الذي يستحضر الشاعر بموجبه العنصرَ الطبيعي من أجل مقابلته بعنصر نفسيّ خفيّ قصد تجسيده أو تقوية معناه، إلى منطق امتزاج الشاعر الكامل بعناصر الطبيعة، فيشاركها تجربته وأحاسيسه ويمنحها الحياة التي افتقدتها في الشعر القديم، ومن أمثلة التوظيف القديم للطبيعة قول الشاعر يصف رزانة محبوبته ووقارها:

كأنَّ مشيتها من بيت جارتها مرّ السحاب لا رَيثٌ ولا عَجَلُ

فالشاعر يعمل على تقوية دلالة الوقار والهيبة في المرأة، فيستحضر صورة من الطبيعة مماثلة لها، بل تفوقها قوّة وعلوّا بغرض تقوية المعنى وتجسيده، ومن ثَمّ فإن السحاب قد وُظّف لأداء غاية بلاغية محدّد دون أن يلامس المرأة أو يمتزج بها، بل إنّ الشاعر يكتفي باستعارة بعض العناصر الجمالية من الطبيعة ويُلحقها بصورة المرأة كي يرتقي بها إلى مستوى قوّة المشبّه به وجماله. أمّا إذا قارنّا البيت بقول بدر شاكر السيّاب:

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نَهَر

فإنّنا نقف على توظيف جديد لعناصر الطبيعة، حيث يتجاوز الموصوفُ مستوى مشابهة عناصر الطبيعة واستلهام قوّة الدلالة منها، إلى مستوى التفاعل معها والامتزاج بها، حيث تستجيب الكروم لابتسامة المرأة (وهي هنا رمز للعراق على الأرجح) فتعلن بداية موسم الخصب، وتعود الفرحة إلى الطبيعة فترقص لحياة الإنسان وتشاركه سعادته. وهنا يكمن الفرق بين الجوهري بين الشاعر القديم والشاعر الحديث، فالأول يسعى إلى مطابقة نفسه وعالمه الداخلي مع العالم الخارجي فهو دائم البحث عن عناصر خارجية يوظفها ويقابل بها عناصر نفسيته، وأما الثاني فيسعى إلى مشاركة العالم الخارجي أو الطبيعة تجاربَهم ويجعل عناصرها حيّة مُعَبِّرة عمّا يختلج في نفسه. يقول: "والموقفان الفنيان المتعارضان، اللذان يُلخّصان فلسفة الفنّ قديما وحديثا، هما الموقفان المتمثّلان في موقف بعض الفنانين الذين يريدون أن يُنَسّقوا وجودهم وفقا للوجود الخارجي، وموقف الآخرين الذين يريدون أن ينسّقوا الوجود الخارجيّ مفقا لمشاعرهم ووجدانهم"[36]

إنّ المتتبع لحركة الشعر العربي الحديث والمعاصر يمكنه أن يدرك بسهولة حجم التأثير الذي أحدثته الرومانسية الغربية في الصورة الشعرية العربية، فقد أخرجتها من هيئتها الثابتة الجاهزة التي تناقلها القدماء، وشاعت الصورة الشعرية التي توهم بالتناقض والتضاد، ومن ثمّ الغموض كالاستعارات التشخيصية: (حنين المرايا)، (العناصر تبكي)، والتّشبيه الإضافي: (شجرة الحلم)

<u>الصورة الشعرية في الشعر المعاصر</u> : قال جابر عصفور في كتابه النقدي(الصورة الفنية في التراث البلاغي): إنّ الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث "هي الجوهر الدائم والثابت فيه". فالشعر الحديث تعبير بالصورة، وكل كلمة أو جملة لا تأتي بمعناها الحقيقي بقدر ما تأتي مجازيا. ويقول الناقد روزنتال: "ما يجعل القصيدة تبدو صعبة ينجم عادة من الزاوية التي ينظر منها إلى القصيدة، وهي اللغة التي تخرج من جوف القواميس إلى الحياة الطبيعية وتستمد أصولها من طبيعة الرؤيا ونوعية الحلم " إن لغة الشعر الحديث لغة خيالية مرتبطة برؤيا الشاعر وبعالمه الداخلي الذي يسعى إلى تقريبه للمتلقي في شكل صور، يصعب في الغالب تحديد ألوانها وملامحها بدقة، لأنها ليست صورا محسوسة، بل هي صور نفسية قد ينقل الشاعر جانبا منها عن طريق التصوير المباشر، لكن جوانب كثيرة يتم نقلها، بصورة غير مباشرة، إمّا إمّا باستخدام الرمز أو التصوير الموسيقي أم غيرها من وسائل التصوير. وكل قصيدة تخلق عالمها الخاص بألوانه وأشكاله الخاصة، ولا تأتي هذه الصورة لتجميل الأسلوب أو توضيح المعنى وإنما لتأدية وظيفة داخل النص الشعري هي وظيفة الإيحاء والتعبير عن الدلالات البعيدة التي يحملها النص، إنّها صورة مترابطة متكاملة تتخلل كل أجزاء القصيدة وليست صورة جزئية كما هو الشأن في الشعر القديم، ولنتناول بعض الأمثلة من شعر بدر شاكر السياب لنبيّن طبيعة الصورة الشعرية. قال السياب واصفا المساء في قصيدة "حفّار القبور ":

في زهوة الشفق الملّون حيث يحترق النهار

في عودة الرعيان أشباحًا يظلّلُها الغُبار

في ساعة الشوق الكئيب إلى شواطئ كالضباب

وإلى أكُفٍّ مخلصات

وإلى أغانٍ مبهَمات هائمات في شِعاب

أنأى من الأصداء تغشاها نجوم ساهمات

في ساعة الشفق الملَوَّن كان إنسانٌ يثور

بين الجنادل و القبور

نفس معذبه تثور

بين الجنادل والقبو

نلاحظ أنّ الشاعر قد رسم صورة فنيّة للمساء، فلم يكتف برصد عناصر الطبيعة المتناسقة التي تتشكّل منها اللوحة الفنية كالشفق الأحمر الزاهي والشاطئ الممتدّ والرعيان العائدين من المرعى، بل أكسَبها أبعادا دلالية جديدة من خلال تشخيص الموصوفات وجعلها نابضة بالحياة، حيث جعل الأغاني تهيم والنهار يحترق والنجوم ضامِرة نَحيلة، كما رصد أهمّ الدلالات النفسية للصورة من حُرقة وحزن وألم أو حلم وحبّ، فعبارة (الرعيان كالأشباح) توحي بالتعب والمعاناة، و(ساعة الشوق الكئيب) توحي بالحزن والمَلل، و(شواطئ كالضباب)ترمز إلى الحلم، و(أكف مخلصات)ترمز إلى الحب والخير. إنها صورة كلية متعدّدة الأبعاد، تشكل جزءا لا يمكن فصله عن بنية القصيدة، صورة لا تكتفي برسم صورة محسوسة فحسب، بلتغوص في أعماع الوجدان وتبعث في القصيدة أحاسيس نفسية عميقة .

وفي قصيدة (شناشيل ابنة الجلبي) وظف السياب قصة مريم الواردة في القرآن الكريم، حيث قال:

وتحت النخل حيث تظل تمطر كلُّ ما سَعفه

تراقصت الفقائع وهي تُفَجَّر إنه الرُّطَبُ

تساقط في يد العذراء وهي تهز في لَهفه

بجذع النخلة الفرعاء

(تاج و ليدك الأنوار لا الذهب

سيصلب منه حُبُّ الآخرين، سيُبرِئ الأعمى،

ويبعث في قرار القبر ميْتًا هَدَّهُ التعب

من السفر الطويل الى ظلام الموت، يكسو عظمه اللحما

و يوقد قلبه الثلجي فهو بحبه يثب!)

يعمل الرمز الديني (مريم) على إضفاء أبعاد روحية على الصورة الشعرية، حيث يحيطها بهَالَةٍ من القداسة المستمدّة من أجواء النبوّة والإعجاز، ويبعث فيها جملة من الدلالات الروحية الإنسانية من خلال الرموز الكثيفة، مثل المسيح الذي يرمز إلى التضحية والفداء لإنقاذ الآخرين، والعذراء التي ترمز إلى الطهارة.

ولعل من أبرز التحولات التي أثرت في السياب فقدانه لأمه، حيث بقي أثر فقدانها محفورا في نفسه، يعتَمل في خياله الرومانسي، فيتخيّل أنّ أشياء الطبيعة تشاركه حزنه ومعاناته، حيث يشبه المساء بطفل فقد أمه في قصيدته "أنشودة المطر":

تثاءب المساء
والغيوم ما تزال
تسحُّ من دموعها الثقال
كأنَّ طفلا بات يهذي قبل أن ينام
بأن أمه التي أفاق منذ عام
فلم يجدها، ثم حين لَجَّ في السؤال
قالوا له بعد غد تعود
لابد أن تعود
وإن تهامس الرفاق أنها هناك
في جانب التل تنام نومة اللحود

تبرز قيمة الصورة في الشعر عامّة، وفي الشعر المعاصر خاصة، من خلال قدرتها على خلق ديناميكية لغوية جديدة مسايرة لحركية الخيال وامتداداته، وكل تجديد خيالي يقتضي بالضرورة تجديدا في لغة الشعر، فإذا كان تجديد الصورة الشعرية يقتضي استحضار عناصر جديدة وإقحامها في علاقات تخييلية مبتكرة، فإن هذا التجديد في الصورة لا يتحقّق دون أن يوجد الشاعر مفردات يستعملها استعمالا رمزيا جديدا ويُدخلها في علاقات لغوية جديدة. يقول الشابّي في قصيدة (في ظلّ وادي الموت):

نحنُ نمشي وحولَنَا هاتِـه الأَكْـ ـوانُ تمشي لكنْ لأَيَّةِ غايَـــــهْ
نحن نشدو مع العصافير للشمـ ـس، وهذا الربيع ينفخ نايَـــــه
نحن نتلو رواية الكون للمَـــــو ت ولكن ماذا ختام الرّوايَـــــهْ
هكذا قلتُ للرّيـــــــاحِ فقالتْ سَلْ ضميرَ الوُجُودِ كيف البدايَهْ
وتغشَّى الضَّبابُ نفسي فصاحتْ في مَلالٍ مُرٍّ إلى أَيْـــــــنَ أَمشي

لقد أقحم الشاعر عناصر من الطبيعة فتحت له آفاق التأمّل الروحي أو الفلسفي، فقد تمكن بفضل الرموز المستوحاة من الطبيعة من سبر أغوار النفس التي تعجز اللغة المباشرة عن وصفها،فقد كما تمكّن

من وأقام علاقات لغوية جديدة، فصار الربيع يعزف على الناي ما يتردد من نغمات النفس الخفيّة، وصارت نفس الشاعر مجَسّدة يتغشّاها الضباب. وهكذا فإنّ خيال الشاعر إنما قام على أساس علاقات لغوية جديدة لم تكن مألوفة في الشعر القديم.

يرى الناقد عز الدين إسماعيل أنّ الشاعر يدرك الأشياء أكثر ما ندرك، ثم يعبّر عنها بإتقان ودقّة، معتمدا على التراكيب الإيحائية والدلالات الملفوفة بالغموض والرموز الكثّفة، ومن أمثلة هذا التعبير المتقن قول أدونيس في قصيدته (القصيدة):

أسمع صوت الزّمن (القصيدة)

يد هنا هناك، القصيدةْ

عينان تسألانْ

هل أغلقَ النسرين باب كوخه

هل فتح الإنسان

بوّابة جديدة؟

إنّ رمز (النسرين) جديد، وليد بيئة معاصرة، ويثير من الأحاسيس ما لا يثيره غيره من الرموز الدالة على الحسن والجمال كالزهر والورد، كما أنّ تشخيص النسرين (رمز الشعر) ينقل بطريقة غير مباشرة تصورَ الشاعر للشعر ووظيفته، كما وظف أدونيس ما يسميه الرمزيون (تراسل الحواس) فجعل العين تتكلم وتنادي، وتمكّن بفضل هذه التقنية من تعبير عما يدور في حنايا الذات والخيال والوجدان من تلوينات ورؤى غير دقيقة وغير ملموسة، تتلاشى فيها الحدود الفاصلة بين المرئيّ والمسموع والملموس.

ولا ننسى أنّ أدونيس من الشعراء المعاصرين الذين تأثروا بالنظريات النفسية الحديثة، وخاصة نظرية اللاشعورن حيث يرى أنّ الإبداع الفني لا ينبع من منطقة الشعور، وإنما ينطلق من اللاشعور، من عالم الخيال والرغبات والقلق والأحلام. ويرى أنّ الشعور يمثل الحياة اليومية، أما اللاشعور فيمثّل الحركة التي تقابلها الثقافة السائدة التي تَعتمل في خيال الشعر وفي أعماقه، وتقوم بتوجيه إبداعه وخياله بطريقة غير إرادية. ويتطلب التعبير عن هذه الحركة الممتدّة إلى أعماق التفكير وأعماق النفس لغةً مغايرة للغة الثقافة السائدة، لغة رمزيّة متحرّرة من علاقاتها العقليّة التقليدية، وتتمثّل مَهَمَّة الشاعر هنا في استعمال اللغة لإبداع عالم شعريّ يتطابق مع العالم الخفيّ الكامن في اللاشعور أو في رؤيا الشاعر، وتلك مهمّة لا تتحقّق بالصور الخارجية المادية التي تتوقف دلالاتها عند حدود العالم المادي الواقعي، بل بصور رمزية إيحائية قادرة على سبر العالم الداخليّ للشاعر ونقله في صورة ضبابية تستثير خيال المتلقي وتُشركه في عملية التخييل دون أن تمدّه بصور جاهزة جامدة محدودة الدلالة.

يرتبط البناء المعاصر للصورة الشعرية بمفهوم (الرُّؤيا) الذي استمده الشعراء العرب أمثال السيّاب وخليل حاوي من الشاعر الإنجليزي (ت.س. إليوت) فصاروا يميلون إلى تشكيل صور إيحائية يشترك كل من اللفظ والتمثيل البياني والإيقاع والموسيقى في رسمها وشحنها بدلالات مُوارِبة تستعصي عن التحديد الدقيق، يقول السياب في (أنشودة المطر):

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبتسمان تورق الكروم
وترقص الأضواء... كالأقمار في نَهَرْ
كأنّما غارت في غوريهما النّجوم.

فالعينان تتملّصان من الدلالة الغزلية الواقعيّة الضيّقة، حين ترتبطان بمكوّن رمزيّ خالٍ من المعاني الغزلية هو (غابة النخيل)، وهو رمز محمَّل بدلالات كثيفة كالخصب والنماء والأصالة والشموخ والغموض، ثم يستحضر الشاعر عنصر الماء (النهر) والعمق (الغور) والمتداد (شرفتان ينأى عنهما القمر) في مخيلة الشاعر بمزيج من الدلالات التداخلة، حيث تسهم تلك الرموز في الإيحاء بالصورة الشعورية دون أن تحدّد ملامحها بدقّة، ومن ثمّ فقد عمل الإيحاء والرمز على تخليص اللغة الشعرية من صفتي التقريرية والمباشَرة.